مسلمو تركستان
والغزو السوفيتي
من خلال التاريخ والأدب
د. شيرين عبد النعيم حسنين
Bibliotheca Alexandrina
0201623

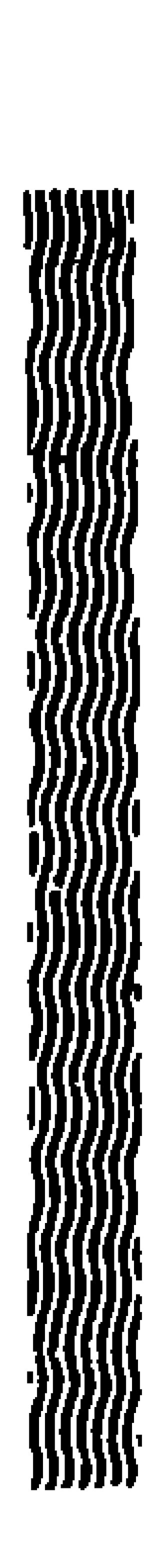
مسلمو تركستان والغزو السوفيتي

من خلال التاريخ والأدب

دكتورة
شيرين عبد النعيم حسنين
المدرس بقسم اللغة الفارسية وآدابها
كلية الآداب - جامعة عين شمس

١٩٨٥


بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

بدون كلمات ؛ لأن أجلها لا يوفيك حقك ، إلى أبى وأستاذى الأستاذ الدكتور عبد النعيم حسنين .

شيرين

المقدمة

أحاطتني تخصصي فى الدراسات الشرقية بتاريخ شعوب بلاد .تركستان ، إن هذه البلاد منبت الأتراك ، ومنذ أشرقت شمس الإسلام على ربوعها ، أخرجت لنا دولا عظيمةتركت بصماتها فى التاريخ حتى الوقت الحاضر ، وأنجبت لنا قواداً وأبطالاً خُلّدت اسماؤهم على مر الزمان ، وروادأ ساهموا بدور فعال فى بناء صرح الحضارة الإسلامية .

غير أن عجلة الزمان قد انقلبت على شعوب هذه البلاد العريقة ، فغزتها روسيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، ثم قامت بعد ذلك بتمزيق أواصرها بتقسيمها إلى جمهوريات ، وكان عماد هذا التقسيم الاختلاف فى اللهجات ، على الرغم أن هذه اللهجات كلها تنتمى إلى لغة واحدة ، وحكمت هذه الجمهوريات حكما مباشراً .

كما نفت الآلاف بل الملايين من أبناء هذه الشعوب إلى مجاهل سيبريا وجلبت الكثيرين من الروس الأوروبيين إلى هذه البلاد للعيش وسط أبنائها ، بعد أن غيرت حروف هجاء لغتهم إلى حروف الهجاء الروسية ، وذلك من أجل قطع صلاتهم بماضيهم العريق ، تمهيداً لترويسهم ، ثم سعت بعد ذلك إلى صهرهم فى بوتقة الشيوعية .

ولما كان المجال هنا لا يتسع للحديث عن نشأة شعوب هذه البلاد وتاريخهم حديثا مفصلا ، إذ أن هذا يحتاج إلى كتب عديدة لتوفيه حقه ؛ فقد تناولت تاريخهم تناولا سريعا مع التركيز على ما يخدم موضوعنا . فتحدثت عن أصلهم ونشأتهم ، وعرفت بهم قبل الإسلام ، ثم تناولت الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، بعد ذلك تحدثت عن الدور الذى لعبه الأتراك فى زمن الخلافة العباسية ، والدول التركية التى قامت فى ظل هذه الخلافة ، مبينة الدور الذى لعبته كل منها فى التاريخ الإسلامى . وختمت حديثي التاريخى بالحديث بشكل مفصل بعض الشىء عن الغزو الروسى لهذه البلاد على أيدى القياصرة ثم البلاشفة ، وسياسة السوفيت تجاههم الآن ومعاناتهم تحت وطأة الشيوعية .

ولما كان الأدب مرآة العصر ينعكس فيها أحداثه وقضاياه ، فقد قمت بترجمة مجموعة من قصص الأدب الأوزبكى ، وذلك نقلا عن الأدب الفارسى ، تلك المجموعة التى نشرتها مؤسسة بروجرس للنشر بطشقند بالاتحاد السوفيتى عام ١٩٨٢ م تحت عنوان (مرغ سعادت) أى طائر السعادة ، لأقدم للقارىء صورة حية لتلك القضايا التى يعايشها مسلمو تركستان فى ظل الحكم السوفيتى من خلال أدبهم (١) .

وأخيراً أتمنى من الله العلى القدير أن يوفقنى فى المستقبل القريب كى أقدم مزيداً من نماذج هذا الأدب الأوزبكى إلى القارىء العربى ،

والله ولى التوفيق

المؤلفة

---

(١) وردت فى الكتاب أسماء وعناوين فارسية ، فأثرت التعريف بحروف الهجاء الفارسية ، التى لا توجد فى الأبجدية العربية ، بغية قراءتها قراءة سليمة وهى :

پ وتنطق مثل (p) فى الانجليزية أو الفرنسية .

چ وتنطق مثل (ch) فى الانجليزية أو الفرنسية .

ژ وتنطق مثل (j) فى الانجليزية أو الفرنسية .

گ وتنطق مثل (g) فى الانجليزية .

المبحث الأول

تركستان من خلال التاريخ

تركستان من خلال التاريخ

ـ ١ ـ

نشأة تركستان :

تشكل بلاد تركستان الآن جزءا من جمهوريات الاتحاد السوفيتى، وعلى وجه التحديد جمهوريات آسيا الوسطى السوفيتية ، وقد كانت هذه البلاد منبت الأتراك الذين شهدهم التاريخ على مر الزمان والعصور .

وتمتد مساحة بلاد تركستان من بحر قزوين (١) ونهر اورال غربا إلى سد الصين شرقا ، ومن سيبيريا ومنغوليا شمالا إلى إيران وأفغانستان جنوبا .

وينحدر أصل شعوب بلاد تركستان إلى (يافث بن نوح) عليه السلام ، فهم من ذرية (ترك بن يافث) وكان ترك ولى عهد والده يافث ، فسميت الأرض باسمه (تركستان) (٢) .

ولما كثر الأبناء تفرقوا وأصبحوا شعوبا وقبائل ، فاشتهر منهم (أوزبك) و(أوغوز) و (مغول) و (قبچاق) وكلهم منسوبون لأسماء سلاطينهم ورؤسائهم .

وقد انتشرت هذه القبائل فى الصحروات والغابات واستوطنت المدن والأقاليم ، واختلفت فى معيشتها وطرق حياتها عن بعضها البعض ، كما كان من هذه القبائل (التتار) وهم قبائل رحل ينتقلون من مكان إلى آخر سعيا وراء المراعى لأغنامهم ، وشاعت شهرتهم فى عهد جنگيرخان (٣) .

أما أشهر قبائل تركستان المعروفة والموجودة الآن فهى :

---

(١) سمى هذا البحر بعد ذلك بحرالخزر، وهى التسمية الرائجة الان .

(٢) تركستان : كلمة مركبة من كلمة ترك ، وستان : لاحقة فى اللغة الفارسية تفيد معنى المكان الذى يكثر فيه الشىء أو الموطن بالنسبة للقوم .

(٣) السيد عبدالمؤمن السيد أكرم : أضواء على تاريخ توران ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ، طبع مكة المكرمة .

١ ـ الأوزبك : وهم قوم يتكلمون باللغة التركية والفارسية ، ويسكنون بخارى وما حولها وسمرقند وكته وقورغان وديزج واوراتيبيه (استروشن) وحصار وقرش ودوشنبه وما حولها .

٢ ـ التاجيك : وهم قوم يتكلمون اللغةالفارسيه،ويسكنون خجند وما حولها وسمرقنـد وبخـارى واوراتيبيه وكان بادام وكاسان وجسته واسفرة ودرواز وخزار وبعض القرى الصغيرة .

٣ ـ القيرغيز : وهم من الأتراك يسكنون الجبال ويرعون الماشية ويزرعون القمح على المطر غالبا ، ويعيشون فى الجبال بين خجند وحصار وأطراف بلاد فرغانة واندجان وطاشقند وغيرها .

٤ ـ القزاق : وهم قوم يتكلمون التركية ، وهم رحالة يعيشون حيثما يوجد العشب والماء ، ويسكنون حول طاشقند (١) .

ـ ٢ ـ

تركستان قبل الفتح الإسلامى :

وكان سكان بلاد تركستان ينقسمون الى قسمين هما :

١ ـ الدول التركية المستقلة التى كانت تعيش فى اقليم ما وراء النهر(٢)أى ما وراء نهر جيحون المعروف الآن بنهر (أموداريا) ، وكان لها حكام أتراك سجل التاريخ أسماءهم مثل (بندون) حاكم بخارى الذى خلد ذكره بتجديده للقلعة التى بناها أفـراسياب وانهارت(٣)،وزوجته الملكة (خاتون) (٤) التى تولت الحكم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٨ .

(٢) كان إقليم ما وراء النهر يمتد من وراء نهر جيحون شمالاً حتى حدود سيحون وينقسم الى خمسة أقسام هى : أ ـ الصغد ، عاصمتان هما بخارى وسمر قند ، ب ـ وإلى الغرب من الصغد إقليم خوارزم المعروف الآن بخيوة أو كيوة ، ج ـ صغانيان ويشمل المناطق الواقعة عند منابع جيحون مثل خش وختلان جغنايان ، ء ـ فرغانة ، هـ ـ الشاش المعروف الآن بطشقند .

(٣) ارمينيوس فامبرى ، تاريخ بخارى ، ترجمة د . أحمد الساداتى ، ص٢٩،هناك إسطورة تحكى أن سياوش بن كيكاوس هرب من إيران عبر جيحون ، وقدم إلى بخارى حيث أكرم افرا سياب وفادته وزوجه من ابنته ، وأراد سياوش أن يترك أثرا من ورائه فأقام مدينة بخارى ، وقيل أن منشىء هذه المدينة أفراسياب نفسه

(٤) المرجع السابق ونفس الصفحة .

لحداثة سن ابنها (طغشاد) وقد تم الفتح الإسلامى لبلادها فى عصرها ، وكذلك ابنها طغشاد الذى احتفظ بالحكم مدة ثلاثين عاما نظير اعتناقه الاسلام (١) ٠

وكان لسكان هذا الأقليم من الأتراك أنشطة زراعية وصناعية وتجارية واسعة ، فكانوا يزرعون القطن ، ويصدرون المنسوجات القطنية الى كل مناطق غربى آسيا . كما كانت بخارى أولى مدن هذا الاقليم سوقا رئيسيا تلتقى فيه تجارة الصين وآسيا الصغرى ، وكانت بها مصانع كبيرة للحرير والديباج والمنسوجات القطنية وأجود أنواع الأبسطة والمصنوعات الفضية والذهبية ، كذلك كانت مركزا مهما للصيرفة يستبدل فيها سكان آسيا الشرقية والغربية سكتهم بواسطة أهلها ٠

كما تذكر المصادر البيزنطية أن أهل بخارى وصغديا كانوا فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الامبراطورية الساسانية الى شرق بلاد الامبراطورية الرومانية ، وحين شق العرب بعد ذلك طريقهم عبر جيحون ، وجدوا هناك نشاطا صناعيا وزراعيا مهما (٢) ٠

أما القسم الثانى من سكان بلاد تركستان فكان البدو من الأتراك الذين يسكنون الشمال ، وكان أقليم ما وراء النهر لا يسلم من غاراتهم ، ومنهم ما عرف بقبائل الغز الذين أسروا السلطان السلجوقى سنجر ، وقد تأكد لهم السلطان على يد المغول (٣) ٠

ـ ٣ ـ

الفتح الإسلامى لتركستان :

تم الفتح الإسلامى لبلاد تركستان الذى كان أهله يعتنقون الشامانية والبوذية فى عصر الخلافة الأموية ٠

وفى عهد الخليفة معاوية نجح جيش المسلمين فى السيطرة على أجزاء ايران الشرقية، فاستولوا على اقليم خراسان، ودخلوا بلخ التى كانت تعد باب ما وراء النهر الجنوبى ٠

---

(١) ارمنيوس فامبرى ؛ تاريخ بخارى ، ص ٤٠
(٢) المرجع السابق ؛ ص ٣١ ــ ٣٥ ، ٤٥ ٠
(٣) المرجع السابق ؛ ص ٤٦ ٠

وقد صارت خراسان فى عهد معاوية قاعدة حربية ، حيث تجمع فيها خمسون ألفا من العرب المسلمين من قبائل بنى خزيمة وبنى تميم وبنى بكر وغيرهم إستعدادا للحرب ، فلما دب الخلاف بين حكام ما وراء النهر اندفعت جيوش المسلمين الى طخارستان المعروفة الآن بـ (طالقان) وما وراء النهر ، واستمر القتال هناك حتى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ، الذى أدرك فشل جيوش المسلمين فى تخطى حدود ما وراء النهر لاستماتة الأتراك فى الدفاع ، فعين الحجاج بن يوسف الثقفى واليا على خراسان ، الذى أوكل إلى القائد المشهور قتيبة بن مسلم الباهى مهمة فتح ما وراء النهر .

وقد خاض قتيبة بن مسلم عدة حملات مع الأتراك استمرت أثنى عشر عاما ، فاستطاع استعادة طخارستان ، ثم عبر نهر جيحون عام ٨٧ هـ ـ ٧٠٥ م وأشتبك مع الأتراك حول مدينة (باى كند) التابعة لبخارى وتمكن من فتحها .

وبين عامى ٨٨ ـ ٨٩ هـ الموافق ٧٠٦ ـ ٧٠٧ م ، توغل قتيبة بن مسلم نحو ترمذ حيث التقى بالقائد التركى (كول تگين) حاكم الولايات الغربية ، لكن الهزيمة لحقت به هناك ، فاضطر إلى الانسحاب الى مرو .

ثم تمكن قتيبة بن مسلم من تجهيز جيش من العرب والفرس المسلمين ، كما أمده الحجاج الثقفى أيضا بالجند ، فتوجه الى بخارى عام ٩٠ هـ ـ ٧٠٨هـوفتحها،كما فتح المنطقة المحيطة بها من اقليم الصغد ، ثم فتح سمرقند وخوارزم بين عامى ٩٢ ـ ٩٤ هـ ٧١٠ ـ ٧١٢ م .

وبين عامى ٩٥ ـ ٩٦ هـ فتح الأقاليم المحيطة بنهر سيحون وخاصة فرغانة خانية خوقند الحالية وأقر الإسلام بها ، وعين حكاما من العرب تولوا الشئون الحربية وجباية الأموال وترك إدارة الحكومة المدينة إلى حكام من أهل البلاد نفسها .

لكن قتيبة بن مسلم قتل بعد ذلك ،ممأادى إلى توقف الفتوحات فى آسيا الوسطى لانشغال الخلفاء المسلمين بالصراعات الداخلية عنها ، كما أدت سياسة الخليفة عمر بن عبد العزيز الى دخول بعض سكان هذه المناطق فى الإسلام ، وقيام البعض الآخر بالثورات ، مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى التخلى عن ما وراء النهر ،

وعندما تولى الخليفة هشام بن عبد الملك عام ١٠٦ هـ ـ ٧٢٤ م ، عين نصر بن سيار واليا على ما وراء النهر ، فأخضع ذلك الوالى معظم المناطق الأخرى ، واسترجع ما كان قد فقد من المسلمين ، كما أحتل الشاش فى الشمال الشرقى من

سمرقند ، وبذلك تم نشر الإسلام فى ربوع آسيا الوسطى (١) أو بمعنى أدق فى بلاد تركستان .

ـ ٤ ـ

تركستان فى ظل الخلافة العباسية :

مما يميز عصر الخلافة العباسية ظهور العنصر التركى وقوة نفوذه ، وقد تمثل هذا النفوذ فى ثلاثة مظاهر هى :

١ ـ تغلغل العنصر التركى فى الخلافة الإسلامية وتوليه زمام أمورها ، بعد تغلبه على العنصر الفارسى .
٢ ـ قيام الفتن والثورات فى بلاد تركستان .
٣ ـ قيام دولة تركية مستقلة .

أما بالنسبة للمظهر الأول فقد غلب الترك وازداد نفوذهم في الخلافةالعباسية، ويرجع ذلك إلى الخليفة المعتصم بالله (٢) وميلهالىالترك،حيثكانت . أمه تركية الأصل من أقليم الصغد وتدعى (مارده) ، وكان فى طباعه كثير من طباع الترك من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم .

فلما تولى الخلافة عام ٢١٨ هـ استقدم عام ٢٢٠ هـ قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنه وغيرها من بلاد تركستان وما وراء النهر ، فاشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب،وأمعن في شرائهم حتى بلغت عدتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقيل ثمانية عشر ألفاً وهو الأشهر (٢).

---

(١) الطبرى : تاريخ الطبرى ، ج ٦ ص ٤٢٤ وما بعدها ، طبع مصر ١٩٢٦ م ارمينيوس فامبرى : تاريخ بخارى ، ص ٥٧ ـ ٧١ . فيليب حتى وآخرون : تاريخ العرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤ طبع بيروت ١٩٥٠م.السيد عبد المؤمن :تاريخ توران : ص ٨٥ ـ ٨٦ . د. نبيه عاقل : خلافة بنى أمية ، ص ١٩٦ ، دمشق ١٩٧٢ م . د . حسن أحمد محمود : الاسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، ص ١٢٢ ـ ١٢٦ . القاهرة .

(٢) لم يكن المعتصم فقط هو الخليفة الذى ترجع أمه إلى أصل تركى، فقد كان هناك بعض الخلفاء العباسيين من أمهات تركية الأصل كالمتوكل والمكتفى والمقتدر بالله .

(٢) أحمد أمين : ظهر الإسلام ، ح ١ ، ص ١ ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ م .

وبتوليهم الشئون الإدارية والعسكرية قوى أمرهم وازداد نفوذهم،لدرجةأنهم كانوا يقتلون من لا يرغبونه من الخلفاء،كما فعلوا بالخليفة المتوكل لما شعروا بأنه يريد التخلص من نفوذهم،قاموا بقتله بواسطة حارسه التركى الذى كان يدعى (باغر) .

كما وصل بهم الأمر أنهم كانوا يستخلفون من يحبون من الخلفاء ، كالمنتصر بن المتوكل الذى استخلفوه لأنه كان يشايعهم ، بل أجبروه أيضا على خلع أخويه المعتز والمؤيد من الخلافة خوفاً من إنتقامهما إذا توليا .

ولما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر ، لم يكن قد استخلف خليفة بعده ، فاختار القواد الأتراك المستعين واستخلفوه ، فبايعه الناس (١) .

وقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر عظيم فى دخول كثير منهم فى الإسلام ، فيذكر مسكويه فى حوادث عام ٣٤٩ هـ أنه فى هذه السنة أسلم من قبائل الأتراك مائتا ألف أسرة يبلغ تعدادها مليون نسمة تقريبا (٢) .

وهؤلاء الأتراك المسلمون ومن أسلموا بعدهم قد انتشروا فى ربوع الخلافة الإسلامية ، وامتزجوا بالعرب ، وألموا بالثقافة العربية ، ونتج عن ذلك أن ساهم عدد لا يمكن حصره من علماء تركستان فى تشييد صرح الحضارة العربية الإسلامية فى العصر العباسى ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

فمن أئمة الاسلام :

١ ــ امام المحدثين الإمام البخارى ، وهو من بخارى كما تدل عليه نسبته .

٢ ــ الإمام محمد بن على القفال الشاشى نسبة إلى شاش (طاشقند) وكان يعد إمام عصره فيما وراء النهر ، وناشر مذهب الشافعية فيه ، وله كتب فى الفقه والأصول .

٣ ــ الإمام أبو منصور الماتريدى : نسبة إلى ما تريد أو ماتوريد وهى محلة بسمرقند ، كان إمام الحنفية فى علم الكلام كالأشعرى للشافعية ، له من الكتب كتاب التوحيد ، وأوهام المعتزلة ، ومآخذ الشرائع فى الفقه ، والجدل فى أصول الفقه وغير ذلك ، توفى عام ٣٣٢ هـ .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ح ١ ، ص ٩ ــ ٢٠ . أنظر تفاصيل الأحداث بتاريخ الطبرى ، ج ١٠ ، ١١ ، و د . حسن محمود وآخر : العالم الإسلامى فى العصر العباسى ص ٣١٣ ــ ٣٦٦ ، القاهرة ١٩٨٠ م . الطبعة الرابعة .

(٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ح ٦ ، ص ١١١ ، القاهرة ١٩١٥ م

٤ ـ الفقيه أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى الملقب بإمام الهدى ، توفى عام ٣٧٣ هـ . ألف بستان العارفين ، وتنبيه الغافلين ، وله تفسير للقرآن الكريم .

٥ ـ الامام ابو عيسى الترمذى نسبة الى ترمذ ، صاحب السنن والشمائل .

٦ ـ ومن فرغانة الفقيهان شمس الدين السرخسى الأوزجندي ، وشيخ الاسلام برهان الدين الفرغانى من كبار فقهاء الحنفية .

ومن فلاسفة الإسلام نذكر أبا نصر الفارابى نسبة إلى فاراب وهو غنى عن التعريف .

وفى مجال الأدب نذكر الكاتب المعروف أبا بكر الخوارزمى والجوهرى صاحب الصحاح ومبتكر طريقة للمعاجم جرى عليها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما وأصله من فاراب (١) .

أما المظهر الثانى فقد تمثل فى أن بلاد تركستان كانت منبع الفتن الدينية والثورات السياسية وذلك لبعدها عن مقر الخلافة العباسية ، نذكر منها فتنة النبى المقنع (٢) التى استمرت ربع قرن ونجح الخليفة هارون الرشيد فى القضاء عليها .

كما كان إقليم ما وراء النهر يموج بالاضطرابات السياسية التى كان يثيرها سكانه، ولم تكن الخلافة العباسية تستطيع القضاء عليها إلا لفترات قصيرة ، فعلى سبيل المثال ثورة رافع بن الليث حفيد نصر بن سيار الذى جمع أهل سمرقند حوله ضد واليهم على بن عيسى من قبل الخليفة هارون الرشيد لظلمه وجوره ، فلما تولى المأمون الخلافة استعان بأسرة السامانين التى كانت تتولى أمر خراسان فى القضاء عليهم (٣) .

---

(١) أحمد أمين : ظهر الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٦٣ ـ ٢٧٤ . السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) المقنع : هو هاشم بن حكيم من أهل حزة باقليم مرو ، وقد جهر بدعوته أول الأمر فى اقليم ما وراء النهر عام (١٥٠ هـ ـ ٧٦٧ م) وكان هاشم قد أعلن لأتباعه أن الله قد ظهر فى صورته ، كما ظهر من قبل فى صورة آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وأبى مسلم الخراسانى ـ الذى كان يعمل عنده فى بادىء الأمر ، وكان يضع دائما قناعا أخضر على وجهه ، ويدعى أنه لا طاقة للناس بالنور المنبعث من عينيه ، ولذا فقد أطلق عليه العرب لقب المقنع ، وقد ظلت دعوته لقرون كثيرة فيما بعد . أنظر ارمينيوس فامبرى : تاريخ بخارى ، ترجمة د . الساداتى ص ٨٠ . فاسيلى فلاديمير فتش بارتولد : تركستان ترجمة د . صلاح الدين عثمان ، ص ٢٢٠ طبع الكويت ١٩٨١ م .

(٣) المرجعان السابقان : ص ٩٠ ، ٣٢١ .

أما المظهر الثالث فى الدول التركية التى قامت فى عصر الخلافة العباسية ، وأعلنت استقلالها عن الخلافة ، وقد لعبت هذه الدول دورا بارزا فى التاريخ الإسلامى ، كما كان يرجع لها الفضل فى ازدهار الأدب الفارسى (١) وهى :

الدولة الخانية :

لا تمدنا مصادر التاريخ بالكثير عن تأسيس هذه الدولة ، والمعروف هو أن مؤسس هذه الدولة هو السلطان (ستون بغراخان) ودانت له كل المناطق التى تقع شمال جبال تيانشان وجنوبها أى التركستان الشرقية كلها .

وتعرف هذه الدولة فى كتب التاريخ بأكثر من اسم،فتذكر باسم الدولة الأفراسيابية أو دولة خانات تركستان أو الدولة الخاقانية أو الدولة الخانية كما سميناها هنا .

وترجع أهمية هذه الدولة الى أن حكامها كانوا مسلمين ، يدينون للخليفة العباسى القادر بالله بالولاء ، فكانت الخطبة والسكة باسمه فى بلادهم ، فسعوا الى نشر الإسلام بين جميع القبائل التركية فى وادى سيحون (٢) .

الدولة الغزنوية :

تنسب هذه الدولة الى البتكين(٣) الذى كان مملوكا تركيا يتولى حكم خراسان من قبل الدولة السامانية،تلك الدولة الفارسية الأصل التى ظهر قبل الدولة الغزنوية فى ايران وما وراء النهر .

غير أن مؤسس هذه الدولة هو ابنه سبكتكين الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام ٣٦٦ هـ ، وقد بلغت هذه الدولة أوج إتساعها فى عهد سلطانها محمود الغزنوية،حيث امتد سلطانها فشمل الجزء الشمالى من شبه القارة . الهندية من جهة الشرق والعراق

---

(١) على الرغم من غلبة النفوذ التركى فى ذلك الزمان ، الا أن تأثير المدنية العربية والفارسية على الأتراك كان من القوة ، بحيث لم تستطع اللغة التركية فى أى مكان أن تصبح اللغة الرسمية كالعربية أو لغة ثقافية كالفارسية ، على الرغم من عدم تخليهم عن لسانهم .

(٢) حسن پيرينا ، وعباس اقبال : تاريخ إيران ازآغازتا انقراض قاجارية ص ٢٥٧ ـ ٢٥٨ طبع تهران . السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ٥٠

(٣) البتكين : كلمة مركبة من الب بمعنى بطل ، وتكين بمعنى المسمى ، وهى تلحق بكثير من الأسماء التركية ، مثل سبك بمعنى مثل أو شبيه .

العجمى من جهة الغرب ، وخراسان وطخارستان وقسما من بلاد ما وراء النهر من جهة الشمال وسجستان من جهة الجنوب . فأصبحت أقوى دولة طفت على سطح الخلافة العباسية .

وترجع أهمية هذه الدولة إلى سلطانها محمود الغزنوى الذى أمسك بزمام الزعامة فى القسم السنى من العالم الإسلامى تحت ظل الخلافة العباسية فى بغداد . فقام بنشر الإسلام فى بلاد الهند، من خلال غزواته لهذه البلاد التى استمرت أكثر من ربع قرن من حكمه الذى ظل أربعة وثلاثين عاما من ٣٨٧ الى ٤٢١ هـ ، والتى صبغها بصبغة الجهاد فى سبيل الله لنشر الإسلام . ودين الله الحق . لذا صار من أبطال المسلمين الذين ذكروا بلقب (الغازى) . كما منحه الخليفة العباسى لقب (يمين أمير المؤمنين) .

ومنذ عصر هذا السلطان أثبت العنصر التركى تفوقه على غيره من الأجناس التى دخلت الإسلام واستظلت برايته .

غير أن الدولة الغزنوية أخذت فى الضعف بعد وفاة سلطانها محمود، فكثرت الفتن فى ربوعها ، كما كثر النزاع على العرش الغزنوى بين أبناء محمود وأحفاده من بعده، مما أتاح الفرصة للسلاجقة للظهور بقوة ، وانتزاع الزعامة من أيدى الغزنويين فى القسم السنى من العالم الإسلامى (١) .

الدولة السجلوقية :

تنسب هذه الدولة إلى سلجوق بن دقاق (٢) رئيس أحد عشائر (لاوج أوروق) من قبائل أوغوز التركية ، وقد هاجروا من ديارهم بالتركستان الشرقية بسبب ازدحامها وضيق مراعيهم الى ما وراء النهر بتركستان الشرقية ، فنزلوا بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون وتنقلوا فى هذه المنطقة فى أثناء رحلتى الشتاء والصيف .

---

(١) حسن پيرنيا وعباس أقبال ، تاريخ ايران ، ص ٢٥٨ . د. حسن محمود و د. أحمد إبراهيم : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٤٧٢ . وقد سميت هذه الدولة بهذا الأسم نسبة إلى عاصمتها غزنة القريبة من كابل عاصمة أفغانستان الحالية ، وهى نسبة على الطريقة الفارسية لا العربية . وقد اشتهرت الدولة بهذه النسبة الفارسية ، فأثرت ذكرها بهذه الصورة .

(٢) دقاق أو (تقاق) كلمة تركية معناها (القوس الجديد)

وقد تأسست دولة السلاجقة عام ٤٢٩ هـ على يد أحد أحفاد سلجوق ويدعى (طغرل بن ميكائيل) بعد أن تغلب عن الغزنويين . ثم حظى باعتراف الخليفة العباسى بشرعية قيام دولته .

وكان قيام دولة السلاجقة حدثاً بارزاً فى تاريخ العالم الإسلامى ، لأن السلاجقة ظهروا على مسرح التاريخ فى صورة دولة فتية قوية،أمسك سلاطينها بزمام الزعامة فى القسم السنى من العالم الاسلامى تحت ظل الخلافة العباسية فى بغداد ، كما كانوا حماة دولة الخلافة ، فسعوا الى نشر الإسلام فى البلاد الغير إسلامية ، لذلك كانوا يسمون جنود الخلافة العباسية المخلصين .

وتوضيح ذلك أن الدولة السلجوقية ، استطاعت فى عهد سلاطينها العظام أن تقيم دولة مترامية الأطراف،تمتد من حدود الهند والصين شمالا الى البحر الأبيض المتوسط غربا ومن البحر الأسود شمالا الى الخليج جنوبا ، تضم بلاد ما وراء النهر وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى .

ويرجع للسلاجقة الفضل فى نشر الإسلام فى بلاد الروم بعد أن سيطروا على ممتلكات الدولة الرومانية (البيزنطية) فى آسيا الصغرى ، مما ساعد على القضاء عليها بعد ذلك بعد أربعة قرون تقريبا أى فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى على أيدى الدولة العثمانية،التى واصلت نضال السلاجقة ضد الدولة البيزنطية المسيحية .

لذلك كانت دولة السلاجقة من أهم الدول الإسلامية التى ظهرت على مسرح التاريخ ، لأنها وجهت سير الأحداث فى المنطقة المعروفة الآن بالشرق الأوسط ، باشتباكها فى صراع مع الغرب المسيحى ممثلا فى الدولة البيزنطية أدى الى قيام الحروب الصليبية ، مما كان له أثره فى تاريخ الشرق والغرب على السواء (١) .

الدولة القراختائية :

وهى دولة غير اسلامية نشأت فى أول أمرها فى منشوريا وشمال الصين ، ولكن هذه الدولة ما لبثت أن انشقت على نفسها،وعاد الفارون من فلولها الى تركستان موطنهم الأصلى ، ولكنهم لم يسالموا أهلها بل أثاروا الفتن والثورات ، وأغاروا

---

(١) لمعرفة المزيد عن هذه الدول انظر الراوندى : راحة الصدور وأية السرور، ترجمه إلى العربية د . الشواربى واخرون . د . عبد النعيم حسنين : إيران والعراق فى العصر السلجوقى . القاهرة ١٩٨٢ م .

عليهم ، فاستولوا على كاشغرو الختن ، وتحاربوا مع السلطان سنجر السلجوقى فى موقعة (قطوان) شمال سمرقند ، وأسروه واستولوا بعد ذلك على ما وراء النهر ، واستمروا حتى قضت عليهم الدولة الخوارزمية (١)

أما بالنسبة لدور هذه الدولة فى التاريخ الاسلامى ، فهو يرجع الى أواخر حكامها الغير مسلمين ، الذين إستوزرواوزراء مسلمين ، مما ساعد على ظهور ولايات إسلامية فى أماكن لم تكن مسلمة من قبل فى عهدهم (٢)

الدولة الخوارزمية :

ظهرت هذه الدولة الإسلامية فى تركستان إثر ضعف الدولة السلجوقية ، ويرجع نسب هذه الدولة الى (انوشتگين) العبد التركى الذى اشتراه أحد أمراء السلاجقة فى غرجستان ، ولحسن سياسته عينوه واليا على خوارزم ، فلما خلفه ابنه قطب الدين لقب نفسه (خوارزمشاه) . وبعد وفاته استغل أبناؤه ضعف السلاجقة وهزيمة سلطانهم سنجر على يد القراختائيين فاستولوا على خراسان واصفهان ، كما استولوا على العراق العجمى التابع للسلاجقة ، كما سيطروا على ما وراء النهر وقضوا على الدولة القراختائية ، ونجحوا فى الاستيلاء على الأقاليم الواقعة على غرب نهر السند وممتلكات الدولة الغورية فى أفغانستان، بحيث امتد سلطانها من حدود العراق غربا الى حدود الهند شرقا ومن شمال بحر قزوين وبحر أرال شمال إل الخليج العربى والمحيط الهندى جنوبا (٣)

ــ ٥ ــ

المغــول :

يرجــع أصلهــم الى قبائــل التتــار التى كانــت تسكــن فى اقليــم منغوليــا باسيا الوسطى فى القرن السادس الهجرى ــ الثانى عشر الميلادى ، ثم اكتسحت

---

(١) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ٥٨

(٢) و . بارتولد : تاريخ الترك فى اسيا الوسطى ، ترجمة د . أحمد السعيد سليمان ، ص ١٣٢ . طبع القاهرة .

(٣) حسن پيرنيا وعباس اقبال : تاريخ ايران (ازآغازتاانقشاريه) ص ٣٨٨ وما بعدها ، د . عبد النعيم حسنين : إيران والعراق فى العصر السجلوقى ، ص ١٦٣ وما بعدها . السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ٥٥ .

جحافلهم على يد جنكيزخان وأحفاده الذين إعتنقوا الإسلام وصاروا من أشد المتعصبين له . ويرجع إليهم الفضل فى نشر الإسلام فى الصين وشرق أوربا والعالم . وكونوا امبراطورية عظيمة تشمل الصين والهند وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر وبلاد الكرج وروسيا وشرق أوربا وإيران والعراق والشام وآسيا الصغرى .

وكان جنكيزخان فى أثناء فتوحاته قد قسم مملكته بين ثلاثة من أبنائه،هم جغتاى وجوجى وأوكتاى وجعل ابنه الرابع تولوى خليفة له على عرش (قراقورم) وجعل له الرئاسة على أخوته الثلاثة .

وقد كون هؤلاء الأبناء رؤوساء سائر المغول الشعب الآتية :

١ ـ شعبة اوكتاى : وكانت تحكم منطقة جنغاريا (١) واستمرت تحكم من ٦٢٤ الى ٦٤٦ هـ (١٢٢٧ ـ ١٢٤٨ م) حتى اسقطتهم عائلة تولوى بعد وفاة اوكتاى .

٢ ـ شعبة تولوى ، وكانوا يحكمون فى منغوليا ، وكانوا خاقانات من ٦٤٦ هـ الى ١٠٤٣ هـ (١٢٤٨ ـ ١٦٣٤ م) على ثلاث فترات،وهى دولة يوئن فى الصين من ١٢٤٨ ـ ١٣٧٠ م ، ودولة فى قراقورم من سنة ١٣٧٠ هـ ـ ١٥٤٢ م ، وقبائل منقسمة متفرقة ، وقد ظلوا خاقانات من بعد شعبة اوكتاى الى أن خضعوا للمانجو بالصين .

٣ ـ شعبة أولاد تولوى فى إيران : وهم ايلخانات ايران هولاكو وأخلافه وقد حكموا من ٦٥٤ ـ ٧٤٤ هـ (١٢٥٦ ـ ١٣٤٤ م) ،وقد أسس هولاكو امبراطورية ضمت ايران والعراق والشام والأناضول والممالیك المسيحية بجنوب قافقاسيا ، وتنتسب الدولة العثمانية التى قامت بتركيا بعد ذلك إلى هذه الشعبة .

٤ ـ شعبة جوجى : كان جنكيز خان قد أعطى ابنه الأكبر جوجى حكم قبائل دولة القراخطائية الواقعة شمال نهر سيحون (سيرداريا) ،وقد استطاع أبناؤه أن يوسعوا ممتلكات الأسرة نحو الغرب بغزو روسيا وشرق أوربا على يد ابنه باتو .

فلما توفى جوجى ورثه أبناؤه ، وانقسموا رؤوساء على الشعب الآتية :

(أ) شعبة باتو : وقد ضمت الخانات الكبار للقبيلة الذهبية،وقد حكمت منطقة (كوك أوردو) فى غرب القبچاق فى الفترة من ٦٢١ ـ ٧٦٠ هـ (١٢٢٤ ـ ١٣٥٩ م) .

---

(١) جنغاريا : هى المنطقة الواسعة الواقعة فى آسيا الوسطى والمحدودة بالتركستان الصينية وغربا بسيبريا وهى جزء من بلاد الصين .

(ب) شعبة أوردا : وهو أكبر أبناء جوجى ، وقد حكمت الآق أوردو بشرق القبچاق فى الفترة من ٦٢٣ الى ٨٣١ هـ (١٢٢٦ ـ ١٤٢٨ م) . فلما انتهت شعبة باتو، صاروا بعد ذلك من بعدهم خانات القبيلة فى غرب القبچاق فى الفترة من ٧٨٠ ـ ٩٠٨ هـ ١٣٧٨ ـ ١٥٠٢ م) ثم صاروا بعد ذلك خانات أجدر خان (استراخان) من عام ٨٧١ ـ ٩٦١ هـ (١٤٦٦ ـ ١٥٥٤ م)

(حـ) شعبة توقاتيمور . كانوا خانات بلغاريا الكبرى شمالى القبچاق ، كما كانوا لفترة قصيرة خانات القبيلة الذهبية غربى القبچاق ، ثم صاروا خانات قازان ٨٤٢ ـ ٩٥٩ هـ (١٤٣٨ ـ ١٥٥٢ م) . ثم خانات قاسموف ٨٥٤ ـ ١٠٨٩ هـ (١٤٥٠ ـ ١٦٧٨ م) ثم خانات القرم ٨٢٣ ـ ١١٩٧ هـ (١٤٢٠ ـ ١٧٨٣ م) .

(د) شعبة شيبان : وهم الأوزبك وكانت ممتلكاتهم بين نهرى اورال وچو، ظلت هذه الشعبة تحكم من ٦٤١ ـ ١٠٩٦ هـ (١٢٢٤ ـ ١٦٥٩ م) وهؤلاء الذى سجل لهم التاريخ تعصبهم للمذهب السنى ومحاربتهم للدولة الصفوية الشيعية فى إيران (١) المذهب ، وقد صاروا بعد ذلك حتى قيام الجمهوريات السوڤيتية خانات خيوة وبخارى .

٥ ـ شعبة جغتاى : وقد حكمت فى ما وراء النهر حتى وفاته عام ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وتاريخ أولاد جغتاى غير معروف ، ولكن الثابت تاريخيا أن ما وراء النهر دخلت تحت نفوذ تيمور لنك عام ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) مؤسس الدولة التيمورية التى امتدت من دهلى حتى دمشق ومن بحر آرال حتى العراق .

وقد حظيت ما وراء النهر فى عصر هذه الدولة بأهمية كبيرة ، وراج وازدهر الأدب التركى الجغتائى على يد أحد وزرائها عليشير نوائى .

وقد استغلت الدولة الأوزبكية ضعف الدولة التيمورية وانهيار أمرها، فاستولت على ما وراء النهر بقيادة ملكها محمد الشيبانى ، وقد ظلت تحت حكم الشيبانيين طوال القرن العاشر الهجرى ، حيث تولى الحكم من بعدهم أقاربهم الاسترخانيون طوال القرنين الحادى عشر والثانى عشر الهجريين . حتى استولى المنغيت أصهارهم على خانية بخارى، وأعلنت إمارة طشقند وغيرها من الإمارات استقلالها ، كما بدأت خانية خوقند (فرغانة) توسع نفوذها على حساب الأمارات المجاورة لها .

---

(١) انظر الصراع بين الاوزبك والصفويين تاريخ الدولة الصفوية للدكتور أحمد الخولى القاهرة ١٩٨١

وبين أعوام ١٢٨٢ ـ ١٢٨٩ هـ (١٨٦٨ ـ ١٨٧٢ م) تم الغزو الروسى لخانات بخارى وخيوه وخوقند ، فصاروا تابعين للروس . وعلى الرغم من أن هذه الخانات استطاعت أن تحظى باستقلالها بعد هزيمة الروس فى الحرب العالمية الأولى ، إلا أنها مالبثت أن أسقطت عام ١٣٣٨ هـ (١٩٢٠) وتم التقسيم البلشفى وتأسيس الجمهوريات السوفيتية (١) .

ـ ٦ ـ

الغزو الروسى لتركستان فى القرن السادس العشر الميلادى :

صار الروس خاضعين لسلطان سلاطين المغول حفدة جنكيز خان الذين دخلوا فى الإسلام حتى الربع الأخير من القرن الخامس عشر الميلادى ، حيث بدأ ميزان القوى يتغير لصالحهم ، وذلك لانقسام الدولة الإسلامية فى تركستان إلى ممالك مستقلة هى مملكة القرم واستراخان وقازان وسيبريا . فقد تنافست هذه الممالك وتناحرت مع بعضها البعض ، فتفككت وضعفت ، بل تفاقم الأمر بينها ، فحالف البعض قياصرة روسيا ضد أخوانه .

فى نفس الوقت كانت دعائم القيصرية قد توطدت ، وأصبحت موسكو وريثا للامبراطورية البيزنطية بعد فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ١٤٥٣م ، وأصبح القيصر حامى الأرثوذكسية التى انتشرت بين الروس . فلما شعر القيصر إيفان الثالث بقوته امتنع عن دفع الجزية لخان المغول ، ودارت الحرب بينهما عام ١٤٨٠ ، وكان النصر حليف إيفان الثالث .

وكان هذا الوقت بداية للفاجعة التى ألمت بمسلمى تركستان ، إذ أعد الروس عدتهم للقضاء عليهم ، فلما تولى العرش ايفان الرابع الذى لقبه المؤرخون بإيفان الرهيب ، حيث كان هذا القيصر دمويا متعصبا ، فأخذ يشن الحملة تلو الحملة على قازان ، لكن حملاته كانت تفشل أمام مقاومة الأتراك المسلمين الباسلة ، حتى استطاعت الجيوش الروسية بعد حصار طويل لها أن تحدث ثغرة فى قلعتها ، فتدفقت منها إلى قلب المدينة ، ودارت فيها المعارك من شارع إلى شارع ، ومن بيت إلى بيت فتساقط كثير من القتلى ، وحل الخراب واستبيحت الحرمات (٢) .

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ، ج ٢ ، طبع مصر .

(٢) د . سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان ، ص ١٥ ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٨٠ م .

ولم تمض أعوام أربعة على سقوط قازان ، حتى نجحت الجيوش الروسية فى الاستيلاء على مملكة استرخان .

وفى عام ١٥٨٢ م بدأ الروس غزوهم لسيبريا ، فأنفذ إيفان الرابع جيوشه إلى دولة بنى قوندى التى كانت تحكم سيبريا والشمال الغربى من تركستان ، فتصدت لها جيوش المسلمين بقيادة حاكمها كوجم خان للدفاع عن بلاده ، فدارت بينهم معركة طاحنة انتهت بهزيمة جيوش الروس وانسحابها بعد مقتل قائدها .

وفى مطلع القرن السابع عشر دارت المعارك بينهم من جديد ، كافحت جيوش الأتراك المسلمين كفاحا باسلا ، استشهد فيها كوجم خان ، ونجح الروس فى الاستيلاء على مملكة سيبريا بعد حروب دامت أكثر من نصف قرن (١) .

لكن التركستانيين ما استكانوا بل واصلوا جهادهم ضد ظلم الروس وتعسفهم ، فقاموا بثورات كانت تقلق الحكم القيصرى ، نذكر منها ثورة استراخان ضد حكم القيصر بطرس الأول (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥ م) ، فقد استطاعت استراخان أن تحظى باستقلالها عن الامبراطورية الروسية لمدة تسعة أشهر فيما بين عامى ١٧٠٥ ـ ١٧٠٦ م . ولكن هذه الثورة قمعت بأقسى وأبشع ما عرف فى التاريخ من وسائل القمع والتدمير (٢) .

ومنذ القرن الثامن عشر بدأت الأمور تسير فى غير صالح ا تركستان وتساعد الروس على ازدياد توسعهم، فقد تأزمت العلاقات بين روسيا فى عهد قيصرتها كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٦٦) والخلافة العثمانية،وانتهت الحروب بينهما بسيطرة الروس على مملكة القرم (٣) .

كما أن بلاد تركستـــان تعرضت فى هذا العصر لإغارة طائفة القلموق من الشمال الشرقى ، فأصبحت جيوش تركستان الشمالية بين نارين تصفية حروبهم ضد الروس غربا ، ومحاولتهم وقف زحف قبائل القلموق شرقا . وبينما كان هذا يحدث فى الشمال كان النزاع الداخلى يفتك تركستان الجنوبية .

علاوة على ذلك فقد تعرضت تركســتان من الجنوب لغزو الفرس بقيادة نادرشاه ، كما انتقل حكم ما وراء النهر من أيدى الاستراخانيين إلى أيدى أمراء المنغيت .

---

(١) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ٦٩ ـ ٧٠

(٢) د . سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان : ص ١٦

(٣) المرجع السابق : ص ١٧ .

هذا بالإضافة إلى إغارة الصينيين على تركستان من ناحية الشرق منتهزين إنشغال التركستانين بالحرب مع الروس فى الغرب ، مما أضعف مقاومتهم أمام الروس .

زد على هذا فقد ظهر خطر جديد تمثل فى الانجليز الذين بسطوا نفوذهم على الهند وحاربوا الأفغان عام ١٨٣٩ م ، فبدأوا تهديدهم لإمارة بلخ وقندز وبقية الامارات الجنوبية من تركستان (١) .

وكان الروس فى ذلك الوقت قد عززوا جيوشهم ، واتجهوا بخطوات واسعة ، فوصلوا إلى الموطن الأوسط لنهر سيحون ، حيث سيطروا فى عهد القيصر الكسندر الأول على جورجيا عام ١٨٠١ م . كما ضموا فى عشرينات هذا القرن أذربيجان وداغستان والجزء الأكبر من أرمينيا .

وكان اقليم ماوراء النهر فى ذلك الوقت مقسما إلى ثلاثة أقسام أصلية هى إمارة خوقند وإمارة بخارى وإمارة خيوه بخلاف حكومات وقبائل التركمان التى كانت تتبع إسميا فقط امارة خيوه ، فبدأ الروس زحفهم على إمارة خوقند فى ديسمبر عام ١٨١٣ م ،لكن حملتهم باءت بالفشل لاستماتة أهلها فى الدفاع عنها ، واستمرت الحروب بينهم زمنا، حتى تمكنت الجيوش الروسية من قتل والى حصنها عام ١٨٥٩ م واقتحامها والاستيلاء على جميع مدنها عام ١٨٦٤ م .

كما حاصروا مدينة طشقند أكبر مدن تركستان عام ١٨٦٥ م ،ونجحوا فى إسقاطها رغم قطع الجداول والانهار التى تسقى أهل المدينة ، وعدم إستسلام أهلها ، ومحاربتهم متحملين الجوع والعطش فى طرقات طشقند وأزقتها ، وليس أبلغ من شهادة قائد الروس الجنرال (تشرنايف) فاتح طشقند إذ يقول : « إن المدينة كانت مستعدة بأكياس الرمال فى جميع الشوارع ، وكانت المقاومة عنيفة جدا ، وقد مات كثير من الناس وهم يهاجموننا جماعات أو فرادى ، ولم يستسلم أحد قط فضل الكل الموت على أسنة الرماح ، وعانى جنودنا الكثير وهم يجتازون الشوارع فى وجه قتال مرير،ولم نضع أيدينا على مجتمع أوناد إلا بعد أن سبحت جنودنا فى مجار من الدماء » (٢) .

---

(١) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران : ص ٧٠ ــ ٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ٧١ ــ ٧٢ محمد الغزالى : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ، ص ١١٢ ، القاهرة ، الطبعة الثامنة سنة ١٩٨٤ م .

كما بدأت محاولتها المتعددة منذ عام ١٨٥٤ م للسيطرة على امارة بخارى، ولكنها كانت تفشل أمام مقاومة جيوشها الباسلة،حتى استطاعت فى عام ١٨٦٨ م أن تستولى على مدينة سمرقند وزرافشان وصفد، ومنها تمكنت من بسط سيطرتها على بقية البلاد عام ١٨٧٣ م ، وعينت سفيرا لها فى بخارى يدير أمورها لصالح دولته (١) .

كما نجحت القوات الروسية فى الاستيلاء على إمارة خيوه بعد سلسلة من الحملات بدأت منذ عام ١٨٣٩ م ، كان مصيرها دائما الفشل بسبب استحاكامات الطريق واستماتة التركستانيين وقسوة المناخ ، إلى أن استطاع الجنرال الروسى (فوقمانك) الاستيلاء عليها عام ١٨٧٤ م ،.بعد أن أعد خطة وقسم جيشه الى أربعة فرق ، فأغاروا عليها فى آن واحد وتمكنوا من اقتحامها ،وعقدالجنرال فوقمانك معاهدة جائرة مع حاكمها، كان من ضمن بنودها أن يتحمل هو وأهل خيوه كافة المصاريف العسكرية الروسية، ومقدارها مليونان ومائتا ألف روبل، وذلك لسوءإدارة خان خيوه وحكومته . (٢)

ومع أوائل الثمانينات من القرن الماضى كان قد تم لقياصرة الروس السيطرة الكاملة على بلاد تركستان ، وقد حاول الأتراك المسلمون أن يستعيدوا ما فات وأن يستأنفوا الجهاد ، ولكن الظروف لم تكن مواتية ، وهكذا خيم ظلام القيصرية وظلمها على مساحات غنية شاسعة من أرض المسلمين .

ـ ٧ ـ

تركستان فى ظل الشيوعية :

فى بداية القرن العشرين أعلن الشيوعيون ثورتهم على القياصرة ، واستطاعوا الاطاحة بعروشهم عام ١٩٠٥ والوثوب الى السلطة فى أكتوبر عام ١٩١٧ م .

ومن المؤسف أن الشيوعيين كانوا أشد دهاء للمسلمين وألد عداء لدينهم ، فقد عمدوا إلى كسب مساندة تركستان الإسلامية لثورتهم وهى فى مهدها مستغلين

---

(١) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ١٦٤

(٢) المرجع السابق : ص ٧٧ ـ ٨٢ .

معاناة المسلمين من ظلم القياصرة واضطهادهم فأصدر المؤتمر السابع للحزب الشيوعى البلشفى لعموم روسيا الذى عقد فى ابريل عام ١٩١٧ م قراراً بهذا الشأن يتضمن أربعة مبادىء هى :

١ - حق جميع القوميات غير الروسية فى الانفصال عن روسيا .
٢ - الاستقلال الاقليمى للقوميات الباقية داخل حدود روسيا .
٣ - ضمان حقوق الأقليات قانونا
٤ - وحدة الحزب .

كما أصدر مجلس مفوضى الشعب برياسة لينين نداءه الشهير الى المسلمين فى ديسمبر ١٩١٧ م الذى يقول فيه :

(أيها المسلمون فى روسيا ، أيها التتر على شواطىء الفولجا وفى القرم ، أيها القيرغيز والسارانيون فى سيبريا وتركستان ، والتتر والأتراك فى القوقاز أيها التشيشيون ، يا أهل الجبال فى أنحاء القوقاز ، أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم ، واعتدى على عقائدكم ومقدساتكم ، ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم لا يطغى عليها طاغ ولا يعتدى عليها معتد ، هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم، فأنتم أحرار لا يحول بينكم حائل وبين ما تريدون ، إن ذلك حق لكم ، واعلموا أن حقوقكم شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوافر لها من وسائل ، الجنود الشجعان ومجالس العمال ومندوب الفلاحين ، إذن فشدوا بأزر هذه الثورة ، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية (١) .

ولكن لينين كان يضمر للمسلمين عكس هذا النداء ، ويبدو في تصريحه ل (ف . د بونتش بروبيفتش في أواخر سنة ١٩١٧ م الذى سجلته كتب التاريخ الروسى ، إذ يقول له : « إن أمامنا فى مجال الدين حربا طويلة جادة هائلة لا هوادة فيها ، حربا تقتضينا الحذر كل الحذر (٢) .

---

(١) د . سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان ، ص ٢٢ - ٢٥ . محمد الغزالى : الاسلام فى وجه الزحف الأحمر ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) د . سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان ، ص ٢٥ نقلا عن نيكيشوف : تطبيق التراث الالحادى اللينينى فى الحياة ، بالروسية موسكو ١٩٦٩ م ، ص ١٢ .

فلم يمض شهر على إصدار نداء لينين الشهير ، حتى انطلقت جحافل النجمة الحمراء دون سابق إنذار مزودة بأحدث أسلحة العصر لتخضع الشعوب الإسلامية بأبشع وسائل القمع .

ولم يمض وقت طويل حتى كانت الجيوش الحمراء قد استولت على شمال القوقاز وإمارة خوقند فى يناير عام ١٩١٨ م . كما احتلت أيضا أذربيجان والقرم فى إبريل عام ١٩٢٠ م ، وقد استماتت جيش القرم فى الدفاع عنها ، فاعتصم بالجبال وعاونه أهلها ، فلما رأت الجيوش الروسية مناعة مقاومتهم ، لجأت إلى حرب التجويع ، فنقلوا ما فى جزيرة القرم من أقوات، مما عرض جنودها وأهلها الأبرياء للمجاعة، وقيل أن بعض الأشخاص أكلوا أولادهم .

فقد نشرت جريدة (إزفستيا) فى عددها الصادر ١٥ يوليو سنة ١٩٢٢ م تقريرا للرفيق (كالينين) عن مجاعة القرم جاء فيه : « بلغ عدد الذين أصابتهم المحنة فى شهر يناير ٣٠٢٠٠٠ ،مات منهم ١٤٤١٣ وارتفع عددهم فى شهر مارس الى ٣٧٩٠٠٠ مات منهم ١٩٩٠٢ وبلغ فى إبريل ٣٧٧٠٠٠ مات منهم ٢٩٢٠٧٢،وفى شهر يونيه بلغ ٢٩٢٠٧٢، ولم يذكر عدد الموتى إلا أنه قال : إن أكل لحم الانسان لم يكن من الحوادث التى يستغرب لها أو تبدو عجيبة فى بابها .. » (١) .

وبعد ذلك حاصرت الجيوش الحمراء إمارة خيوه* من ثلاث جبهات ، واستبسل أهلها فى الدفاع عنها ولكنها سقطت فى نهاية عام ١٩٢٠ م .

وفى عام ١٩٢١ م استأنفت الجيوش الحمراء هجومها على إمارة بخارى، فقصفتها برأ وجوأ ، فأنزلت بها خسائر فادحة، حيث التهمت الحرائق معظم مبانى بخارى، وقتل فى هذا العدوان الغاشم حوالى خمسين ألفا من الشيوخ والأطفال والنساء والرجال خلاف القتلى من جنودها، . مما أضطر حاكمها السيد عالم خان الى مغادرتها واللجوء إلى أفغانستان طلبا للمساعدة (٢) .

لكن مسلمى تركستان لم ييأسوا، ولم يكفوا عن الدفاع عن وطنهم ، فأمام إنهزام جيوشهم المنظمة كانوا قد شكلوا حركة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الروسى

---

(١) الغزالى : الاسلام فى وجه الزحف الأحمر، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٢) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ١٤٧ ـ ١٥١

لبلادهم عام ١٩١٨ م . تلك الحركة التى تزعمها رجال الدين وعرفت باسم البسماجية (٢) . وكانت مصدر خطر يقلق الحكومة الروسية .

وقد توحد لواء هذه المقاومة تحت قيادة أنور باشا ، فكون جيشا وطنيا قوامه خمسة عشر ألف مجاهد ، وظل يجاهد فى شرق بخارى نائبا عن حاكمها السيد عالم خان ، ونجح هذا الجيش فى الاستقلال بشرق بخارى ، وتمكن من فتح مدن كثيرة ، وحرروها من الروس .

وفى عيد الأضحى عام ١٣٤٥ هـ (١٩٢٤ م) حيث كانت هناك اتفاقية هدنة بين جيش المسلمين والروس . إلا أن الروس نقضوا الاتفاقية ، وأغاروا على المسلمين فى صلاة العيد . فاستشهد كثير منهم ومن بينهم قائدهم أنور باشا .

وقد تولى القيادة من بعده إبراهيم لقى ، فهاجمته القوات الروسية عام ١٩٢٥ م ، واستطاع أن يصمد أمامها ، وفى تلك الفترة كان البلاشفة الروس قد أرسلوا جنودهم إلى « درقد » عند حدود أفغانستان قرب نهر جيحون ، حيث دار جدال بين الطرفين بخصوص الحدود . فانتهز ابراهيم لقى هذه الفرصة، فترك بعض قواده مع جيش بشرق بخارى ، وتولى بنفسه قيادة باقى الجيش بلغ عددهم ألف وخمسمائة مجاهد ، وانتظر بالقرب من منطقة النزاع ، يرقب نتيجة المباحثات بين الروس والأفغان ، ليسرع للمساعدة بجانب الأفغان اذا قامت الحرب بينهما،ولكن المباحثات انتهت بعقد إتفاقية بينهما .

فلما علم الروس بوجوده مع قواته وراء الجبال ، هجموا عليه بجيش من خمسة وعشرين ألف جندى . ودار قتال عنيف مدة خمسة أيام ، فتشتت قوات ابراهيم لقى فى الجبال . ولم يبق معه سوى ثلاثمائة مقاتل ، مما اضطره الى عبور نهر جيحون واللجوء الى افغانستان . حيث أقام بجوار السيد عالم خان .

وقد أرسل السيد عالم خان عبد الملا القهار من كابل ليجمع الفدائيين من غرب وشمال بخارى . وقد نجح عبد الملا القهار فى تنظيمهم ، واستطاعوا أن يستولوا على بعض المدن والقرى . بل واصلوا زحفهم للاستيلاء على بخارى العاصمة ، ولما رأى الروس صعوبة فى وقف زحفهم ، أخلو لهم الطريق فدخلوا

---

(١) شكل فدائيو تركستان جبهة مقاومة فى كل امارة . كانت تسلك مع الجيوش الروسية حرب العصابات . فكان الفدائيون يختبئون فى الجبال . ثم يقومون ليلا بالأغارة على مخازن الأسلحة والذخيرة الروسية . فينهبونها ثم يحاربون بها القوات الروسية .

المدينة فاتحين منتصرين ، ثم حاصروهم بعد أربع ساعات وأغاروا على المدينة بالدبابات والمصفحات والمدفعية والطائرات ، فاستشهد الكثير ولم يستطع الملا عبد القهار بمن بقى معه من قواته القلائل الصمود أمامهم ، فانسحب الى قزاقستان . فخرب الروس قرى ومدن بخارى وقتل الكثير من أهلها،وبذلك انتهت حركة الفدائيين التى استمرت حتى عام ١٩٣٢ (١) .

وبعد أن استعمر الروس بلاد تركستان ، شرعوا فى تنفيذ مخططهم السوڤيتى لتفتيت وتمزيق شمل هذه الشعوب الإسلامية ، وقطع الصلات بين حاضرها وماضيها والقضاء على ديانتها ومدنيتها من أجل نشر الإلحاد والشيوعية بين أرجائها .

ففى خلال النصف الأول من القرن العشرين قام البلاشقة الشيوعيون عملا بالسياسة الاستعمارية فرق تسد بتفريق وتمزيق الشعوب التركستانية المسلمة إلى عدة قوميات مستقلة، نسبة الى المقاطعات على أساس لهجاتهم المختلفة،التى تنتمى فى الأصل إلى لغة واحدة ، واسموها جمهوريات ، فأقيمت فى القوقاز وهى بلاد الكرج وجورجيا وأذربيجان وداغستان وبلاد الشركس والأرمن وأيديل أورال والقرم جمهوريات ضمت إلى الاتحاد السوڤيتى كما جزئت تركستان الغربية بعد أن ضمت الصين تركستان الشرقية إلى حوذتها (٢) إلى ست جمهوريات هى : أوزبكستان وتاجيكستان قازاقستان وقيرغيزستان وقراقلباقستان ، وأصبحت تحت نفوذ السوڤيت ، وحكموا حكماً مباشراً (٣)

وإمعانا فى خلخلة تجمعاتهم الإسلامية ، وقطع صلاتهم بين حاضرهم وماضيهم والقضاء على مدنيتهم ، قامت الحكومة السوفيتية بنفى آلاف من الأتراك المسلمين إلى مجاهل سيبريا ، واستقدمت ألوفا مؤلفة من الروس والسلاف والأوكران إلى هذه البلاد .

---

(١) السيد عبد المؤمن : أضواء على تاريخ توران ، ص ١٥١ ـ ١٥٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

(٣) تقع تركستان الشرقية فى القسم الغربى من جمهورية الصين الشعبية ، وقد كانت تكون الجزء الشرقى من بلاد تركستان المسلمة ، التى كانت تقع فى وسط آسيا، إلى أن أحتل الروس الجزء الغربى منه، وقسموه الى جمهوريات ، وهى حاليا تشكل مقاطعة (سنكياج) وتتمتع بالحكم الذاتى داخل جمهوريات الصين الشعبية ، ويسكنها حوالى تسعة مليون نسمة ، يشكل المسلمون نحو ٨٥٪ منهم . انظر د . عادل طه المسلمون فى العالم ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ ، القاهرة الطبعة الاولى ١٩٨٠ م

فنجد مثلا أن الروس أصبحوا يشكلون الآن ٤٣٪ من سكان جمهورية قازاقستان، وانخفض عدد المسلمين بها إلى ٥٢٪ ، بعد أن كانوا يشكلون نحو ٧٠٪ من سكانها ، كما أصبح العنصر الروسى يشكل ٢٩٪ من سكان جمهورية قيرغيزستان ، وانخفضت نسبة المسلمين إلى أقل من ٧٥٪، بعد أن كانت تشكل نحو ٩٢٪ من مجموع سكانها (١) .

ونستدل على ذلك بالوقائع الآتية :

قتل الروس فى تركستان وحدها عام ١٩٢٤ م مائة ألف مسلم من أعضاء الحكومة المحلية والعلماء والمثقفين والتجار والمزارعين .

وفيما بين عام ٣٧ / ١٩٣٩ م ألقت روسيا القبض على ٥٠٠ ألف مسلم ، وعددا من الذين استخدمتهم فى الوظائف الحكومية ، ثم أعدمت فريقا ، وأرسلت فريقا آخر إلى مجاهل سيبريا .

كما قتلوا فى عام ١٩٥٠ م سبعة آلاف مسلم ونفوا من تركستان عام ١٩٣٤ م ثلاثمائة ألف مسلم .

وقد هرب من تركستان منذ عام ١٩١٩ م حتى اليوم مليونان ونصف مليون من المسلمين .

وفى عام ١٩٤٩ هرب ألفان من تركستان الشرقية، ولاقى حتفه من هذا الفريق الهارب ١٢٠٠ وهم فى الطريق إلى الهند .

ومن عام ١٩٣٢ حتى ١٩٣٤ م مات ثلاثة ملايين تركستانى جوعاً ،نتيجة استيلاء الروس على محاصيل البلاد وتقديمها الى الصينيين الذين أدخلوهم الى تركستان

ونتيجة لقانون مزج الشعوب الإسلامية فى الاتحاد السوفيتى ، نفت روسيا ٤٠٠,٠٠٠ مسلم تركستانى إلى أوكرانيا وأواسط روسيا، فاندمجوا فى تلك الشعوب، وفقدوا وطنهم الأصلى .

وفى عام ١٩٥٠ م ألقى القبض على ١٢٥٦٥ مسلم فى تركستان، وأودعوا المعتقلات(٢) ولم يكتفوا بهذا ، بل عملوا على إثارة الطبقات الكادحة من الفلاحين والعمال على الاقطاعيين أصحاب الأرض والمصانع ، وذلك من أجل بلبلة الفكر وتشتيت الشمل بين شعوب الجمهوريات الإسلامية السوفيتية .

---

(١) د . عادل طه : المسلمون فى العالم : ص ١١٢

(٢) الغزالى : الإسلام فى وجه الزحف الأحمر ، ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

كما أصدرت السلطات الشيوعية عام ١٩٢٥ م قراراً باستبدال حروف هجاء اللغة التركية الجغتائية لغة مسلمى تركستان إلى حروف الهجاء الروسية، وذلك من أجل ترويس هذا الشعب والقضاء على قومياته (١) ٠

— ٨ —

الإسلام والشيوعية :

كانت الشيوعية الملحدة ترى أن الدين يقوم بدور هائل فى عرقلة تطور المجتمع الشيوعى وربطه بعجلة التكنولوجيا المتقدمة . ويؤكد ماركس هذا فى رأيه الذى أورده فى مقدمة نقده لنظرية هيجل فى الحق فيقول « إن الدين أفيون الشعب » . وفسر رأيه بقوله : « أى دين ما هو إلا انعكاس زائف فى أدمغة الناس للقوى الخارجية المتحكمة فى حياتهم اليومية ، وانه إنعكاس تتخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى غير أرضية » (٢) ٠

وتبين لنا كتب التاريخ الروسية سياسة السلطة والحزب تجاه الشعوب الإسلامية ، كما يبدو فى كتاب « الإلحاد : تاريخه ونظريته » الصادر فى موسكو عام ١٩٧٤ م : « إن قول ماركس بأن الدين أفيون الشعوب، يحدد جوهر موقف الأحزاب البروليتارية بالنسبة لقضية الدين » (٣) ٠

ومن هنا بدأت السلطة السوفيتية فى عملية القضاء على الدين ونشر الإلحاد وتربية الشعب فى روح الشيوعية . فمنذ الأيام الأولى لها أصدرت سلسلة من المراسم والقوانين بهذا الشأن وهى :

---

(١) اللغة الجغتائية هى اللغة التركية الخاقانية التى عرفت فيما بعد الجغتائية ، وكانت جميع لهجات الجغتائية تكتب بالحروف العربية لأنها نشأت تحت ظل الإسلام ، وتأثرت بحضارته ، ودخلت فيها كلمات عربية كثيرة . واستمر الحال هكذا حتى استبدلها الروس بالحروف اللاتينية أولا ثم بالحروف الروسية فى عام ١٩٢٥ ٠

(٢) د ٠ سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان ص ٣٩ نقلا عن ماركس انجلز لينين : « عن الدين » » بالروسية) موسكو ١٩٧٥ ، ص ١١ ٠

(٣) م ٠ ب ٠ نوفيكوف وآخرون : الالحاد تاريخه ونظريته ، بالروسية ص ٢٨٣ ، نقلا عن د ٠ سعد مصلوح : المسلمون بين المطرقة والسندان ، ص ٣٩ ٠

فى ٨ نوفمبر ١٩١٧ م صدر أول مرسوم بعنوان (عن الأرض) يقضى بمصادرة جميع الأراضى المملوكة للكنيسة والأديرة ودور العبادة الأخرى .

وفى ٣١ ديسمبر عام ١٩١٧ م صدر مرسوم خاص بالأحوال الشخصية يقضى بإحلال التوثيق المدنى محل التوثيق الدينى ، ويقضى باعدام أى أثر قانونى للعلاقة بين الزوجين أو بين الأباء والأبناء،اذا اكتفى الزوجان بالتوثيق الدينى لعقد الزواج .

بهذا القانون منع المسلمون من التمتع بالنظم الإسلامية فى دائرة الأحوال الشخصية ، فألغيت بذلك المحاكم الشرعية فى جميع أنحاء الاتحاد السوفيتى .

وفى يناير ١٩١٨ م صدر قرار بوقف صرف أى مرتبات لرجال الدين أو العاملين بدور العبادة .

وقد كانت هذه القرارات السابقة مجرد إجراءات عاجلة بادرت السلطةباتخاذها حتى أعلنت حكومة الثورة فى دستور جمهورية روسيا الاتحادية الفيدرالية الصادر عام ١٩١٨ م مبدأ حرية الضمير ونصته فى شكل مادة دستورية تنص « أن حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع » .

وكان هذا القانون يقضى بفصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة ، ثم أصدرت بعض القرارات بشأنه، تنظم بموجبها ممارسة الشعائر الدينية، وتحدد حقوق المتدينين وواجباتهم ومن أهمها :

١ ـ يعطى القانون للمتدينين الحق فى تكوين منظمات أو جمعيات دينية ولأعضائها الحق فى ممارسة الشعائر والطقوس الدينية ، بشرط أن يتقدم المؤسسون بطلب للجنة التنفيذية التابعة لمجلس السوفيت فى المنطقة أو المدينة، لتوقيع اتفاقية بينهم وبين السلطات . ويختص بالفصل فى كافة الأمور المتعلقة بنشاط الجميعات الدينية لجنة شئون الأديان التابعة لمجلس الوزراء السوفيتى بواسطة فروعها المختلفة ، وبدون هذا التسجيل يصبح نشاط الجمعية محظورا وغير قانونى .

٢ ـ من حق الدولة أن تحظر نشاط أى جمعية دينية أو تغلق أى دور للعبادة وتصادر ممتلكاتها،إذا رأت أن نشاطها يخالف أهداف الدولة .

٣ ـ لا تمانع الدولة فى تعميد الأطفال أو اجراء المراسيم الدينية للزواج ، ولكن الزواج لا ينعقد ولا يترتب عليه الأثار القانونية إلا بتسجيله فى سجل الأحوال المدنية .

٤ ـ يحظر القانون ممارسة أى طقوس أو مراسيم دينية أو ادخال ما يلزم من أدوات لأداء الشعائر الدينية فى جميع المؤسسات الحكومية والعامة فى أى مكان دون الأماكن المخصصة لأداء العبادة ، وإلغاء اليمين الدينى فى المناسبات الرسمية والاجتماعية .

٥ ـ يحظر القانون على الجمعيات والمنظمات الدينية أن تخصص صندوقا للمعونات،أو أن تقوم بأى نشاط خيرى،أو عمل اجتماعات ولقاءات وندوات خاصة بالأطفال والشباب والمرأة ، كما يحظر عقد أى أنواع من الحلقات لتدريس الدين للمواطنين .

٦ ـ يحظر القانون على الجمعيات والمنظمات الدينية القيام بأى رحلات،أو عمل معسكرات للأطفال ،أو إفتتاح مكتبات ،أو قاعات مطالعة ،أو إنشاء مصحات ،أو مستشفيات .

٧ ـ يحظر القانون زيارة الأماكن الدينية المقدسة حفاظا على صحة المواطنين .

٨ ـ يمنع منعا باتا التعليم الدينى للأطفال فى المدارس أو دور العبادة .

٩ ـ يحظر دخول دور العباده للمواطنين الذين تقل أعمارهم عن ثمانية عشر عاما .

١٠ ـ يحظر على رجال الدين إستغلال الخطب للتعبير عن وجهات نظر سياسية،أو اجتماعية أو توجيه أى بيان أو منشور ليس فى صالح الدولة .

١١ ـ يضمن القانون المساواة بين المواطنين فى الدين ، وبالتالى يقضى بعدم النص على دين المواطن أو الطائفة الدينية التى ينتمى إليها فى أى وثيقة رسمية .

١٢ ـ يحظر على الجهات المحلية أو المركزية تخصيص أى إعتمادات مالية لصالح المؤسسات الدينية ،سواء كانت هذه الإعتمادات فى شكل إعانات أوحصص مفروضة على المواطنين تكتسب صفة الإلزام (١) .

---

(١) نشرت مواد هذا المرسوم ضمن مقالات كتاب(كتابات مختارة)فى الالحاد (بالروسية) ل . ب . م . كراسيكوف تحت عنوان (وذ كرتيتو عن الكنيسة والمدرسة) ص ١٩٢ ـ ٢٠١ ،ولقد قمت بنقلها عن كتاب المسلمون بين المطرقة والسندان للدكتور سعد مصلوح ص ٤٤ ـ ٤٩ .

والجدير بالذكر كما يقول د . مصلوح أن كراسيكوف هذا هو واحد من كبار أنصار لينين ومن أهم من شاركوا فى صياغة المرسوم المشهور عن فصل الكنيسة عن الدولة والمدرسة عن الكنيسة .

ومن هنا بدأت السلطات السوفيتية منذ أيامها الأولى وحتى الآن ـ بعد أن احتلت تركستان ، وقامت بتمزيق شمل شعوبها الإسلامية بتقسيمها إلى جمهوريات تابعة لها نسبة إلى لهجاتها المختلفة المنتمية للغة واحدة ، ونفى آلاف مؤلفة من المسلمين الأتراك ممن تزيد أعمارهم عن خمسة وعشرين عاما إلى مجاهل سيبريا ، وتغيير حروف هجاء لغتهم إلى حروف الهجاء الروسية ـ فى تحقيق أهداف ثورتها الثقافية وهى القضاء على الدين ونشر الإلحاد من أجل خلق إنسان جديد مقطوع الصلة تماما بماضيه الدينى وانتمائه القومى ، لا إيمان له إلا بالوطن السوفيتى ، ولا تقديس له إلا للعمل الشيوعى ، ولا مطمع له فى ملكية خاصة .

فقامت السلطات السوفيتية بهدم المساجد وتحويلها إلى مسارح ونواد ودور للهو وإستخدامها فى غايات أخرى ، وإغلاق المدارس الدينية .

ويذكر أنه بلغ عدد المساجد التى هدمت أو حولت إلى غايات أخرى فى تركستان وحدها ٦٦٨٢ مسجد منها أعظم المساجد الأثرية مثل (منارة مسجد كالان) فى مدينة بخارى و (كته جامع) فى مدينة فوقان و (جامع ابن قتيبة) و (جامع الأمير فضل بن يحيى) و (جامع خوجه أحرار) فى مدينة طشقند .

كما بلغ عدد المدارس والكتاتيب التى أغلقت فى تركستان ٧٠٥٢ مدرسة منها (ديوان بيكى مدرسه) فى مدينة بخارى و (بكلريك مدرسة) و (بران خان مدرسه) فى مدينة طشقند وغيرها من المدارس التاريخية التى كانت يوما ما مناهل للعلم والمعرفة .

وفى القرم طمسوا معالم الإسلام بما فيها من الجوامع الأثرية مثل (جامع خان) وجامع (طوزيازار) و (جامع أصماقويو) وغيرها فى مدينة (باعجه سراى) عاصمتها .

كما قامت بقتل رجال الدين والسياسة ، أو نفيهم أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة أو منعهم من حقوقهم السياسية ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، أن السلطات الروسية قامت بعدة حملات على رجال الدين المسلمين فى تركستان وغيرها من المناطق الإسلامية الشاسعة فى الاتحاد السوفيتى ، وقتلت الكثير منهم مثل الشيخ برهان البخارى قاضى القضاة ، وفضيلة الشيخ خان مروان خان مفتى بخارى والشيخ عبد الأحد داد خان والشيخ الحاج ملا يعقوب والشيخ ملا عبد الكريم والكثيرين غيرهم . كما قامت بحرق المصاحف الشريفة فى الميادين العامة بالقرم .

ومن الزعماء السياسيين الذين قامت بقتلهم فى تركستان عام ١٩٢٤ م الحاج خوجه نياز رئيس الجمهورية، ومولانا ثابت رئيس مجلس الوزراء، وشريف حاج قائد مقاطعة ألتاء، وعثمان أوزار قائد مقاطعة كاشغر، ويونس بك وزير الدولة، والحاج أبو الحسن وزير التجارة، وطاهر بك رئيس مجلس النواب، وعبد الله داملا وزير الأشغال والكثيرين غيرهم لا يتسع المجال هنا لذكر اسمائهم (١).

وهكذا كانت السلطات السوفيتية تقوم بحملة تصفية على كل من تساوره نفسه بمخالفة سياستها، بحيث يصبح القادة ورجال الدين ودور العبادة بهذه القرارات الجائرة ألعوبة فى أيديها مسلوبة الشخصية، مما يؤدى فى النهاية إلى عدم إقناع الناس بها وإنصرافهم عنها.

كذلك كانت بمنعها تدريس الدين فى المدارس على مختلف مستوياتها، وتحريمها دخول الأطفال والشباب الأقل من ثمانية عشر عاما دور العبادة، لممارسة الشعائر الدينية، وعدم القيام بأى نشاط من أجلهم، ما هو إلا إجتثاث لجذور التدين تمهيدا للقضاء على الدين.

كما أن دهاءها فى منع الناس من زيارة الأماكن المقدسة بحجة الحفاظ على صحتهم، ما هو إلا أباطيل لقطع أواصرهم عن ماضيهم بتراثه العريق، يكشفها ما يرويه د. مصلوح الذى عاش فى روسيا أربع سنوات، وشاهد بنفسه الأطفال دون العاشرة الذين يساقون إلى الميدان الأحمر فى طوابير طويلة تحت جليد الشتاء وبرد موسكو القارس، يحملون الورود والشارات والأعلام، ليقفوا أمام مقبرة لينين، حيث ينتظرون الساعات والساعات من أجل أن يحظوا بنظرة على جثمانه المسجى فى صندوقه الزجاجى تحت الأضواء (٢).

أما نشر الإلحاد الذى هو هدف الثورة الثقافية عن طريق زعزعة العقيدة وتشكيك الناس فى إيمانهم، وتشويه وتزييف حقائق تاريخهم الإسلامى من أجل القضا على الدين، فقد تولى الإشراف على تنفيذ مخططه وزارات التعليم والثقافة والنقابات المهنية كنقابة الصحفيين واتحاد الكتاب والنقابات العمالية. وتعمل جميعها تحت إشراف الحزب وتوجيهه. ويقوم الحزب بتخريج الكوادر المتخصصة فى ممارسة الدعاية الإلحادية وذلك بواسطة أجهزته المتعددة، ومنها:

---

(١) الغزالى: الاسلام فى وجه الزحف الأحمر، ص ١٣٠ ـ ١٣٢.

(٢) د. مصلوح: المسلمون بين المطرقة والسندان، ص ٥٢ ـ ٥٤.

١ ـ معهد الإلحاد العلمى بأكاديمية العلوم الإجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب،ويتولى إصدار البحوث والدوريات،وإجراء الاستفتاءات،واستطلاعات الرأى والإحصائيات ، ويضع ذلك كله تحت تصرف الاجهزة والكوادر المعنية .

٢ ـ مجموعات الحوار السياسى وعملها اجراء المحاورات والمناقشات .

٣ ـ المدارس الحزبية للحزبيين .

٤ ـ مدارس العمل الشيوعى لغير الحزبيين .

٥ ـ الجامعات الشعبية ، وتقوم بتدريس أنواع متخصصة من العلوم بالإضافة الى علوم الماركسية اللينية .

٦ ـ جمعية المعرفة لعموم الاتحاد السوفيتى ، وتمارس نشاطها بالمحاضرات والمعارض والمتاحف والنشاط المسرحى والسينمائى وإصدار الكتب والنشرات (١) .

وتقوم هذه الأجهزة بتحقيق أهداف الثورة الثقافية فى نشر الإلحاد بالوسائل المختلفة وهى :

إعادة تصنيف وكتابة التاريخ الإسلامى بحيث يتفق مع أهداف الحزب والحكومة؛ فاتجهت جهود المستشرقين السوفيت الى محاولة التماس تفسير مقنع لظهور الاسلام، يتفق مع مواصفات الماركسية وفروضها ، وينفى الصفة الألهية عن الاسلام وكتابه المنزل ، وأصبح القرآن الكريم وشخصية الرسول عليه السلام وسيرته وتاريخ صحابته محوراً لحملات الإفتراء والتشكيك . ولم يقتصر نشر هذه الأباطيل على قاعات البحث وأروقة الجامعات ، وانما تم طبعها ونشرها لتكون فى متناول جماهير المسلمين هدما للإيمان وزعزعة للعقيدة (٢) .

محاولة تشويه تاريخ الإسلام فى اسيا الوسطى والقوقاز،حتى أن المتصفح لكتب التاريخ المقررة على مدارس الجمهوريات الإسلامية، يجدها تصور مظالم القيصرية نعيما،إذا ما قورنت بمظالم الحكام المسلمين ، وتؤكد انه كان يوجد تحالف دائم بين الخلفاء والأمراء وبين رجال الدين المسلمين ،هدفه إستغلال الناس والاستئثا،

---

(١) د . سعد مصلوح : ص ٦٦ ـ ٦٧ نقلا عن البناء الحزبى بالروسية ، موسكو ١٩٧٤ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٦١

ويذكر د . مصلوح إنه يمكن الرجوع على سبيل المثال إلى المواد : القرآن ، الاسلام ، محمد فى دائرة المعارف السوفيتية الكبرى ، وفى المعجم الفلسفى بالروسية ، ودليل الملحد بالروسية .

بالطيبات . ويفسر مصنفو الكتب أن هذا التجالف ليس مناقضا لمبادىء الدين وإنما هو نابع منها (١) . لذا راحوا يزيفون الحقائق ويشوهون الأحداث، فصوروا قواد ثورات التمرد والفتن السياسية أمثال النبى المقنع (٢) على أنهم أبطال شعبين، قادوا نضال شعبهم ضد الظلم والاستعباد . وصوروا قواد الحركات الفدائية المناهضة للسلطات الروسية على أنهم قطاع طرق يقومون بحرب العصابات، من أجل النهب والتخريب وأطلقوا عليهم اسم البسماجية وهذا سوف نوضحه فيما بعد .

ولما كان المفهوم الشيوعى الملحد يرى أن الدين. يقف حائلا دون التقدم العلمى والتكنولوجيا الحديثة . فقد حاولوا غرس الالحاد فى نفوس التلاميذ على مختلف أعمارهم .عن طريق كثير من العلوم كالفلك الجيلوجيا والطبيعة والكيمياء والأدب . فقد نحت مثل هذه العلوم منحى الحاديا فى دراستها وتدريسها .

تحويل المتاحف الأثرية فى البلاد الإسلامية إلى أداة فى يد الملحدين لتشويه معالم الإسلام . وتشكيك إيمان الزائرين به. فنجد مثلا فى مقال ورد فى كتاب روسى تحت عنوان (الإلحاد والدين والعصر) للكاتب أ . ستسكافيتش تحامل فيه على المسئولين عن المتاحف لقصور فهمهم لوظيفة المتحف . ويقترح عليهم إعادة ترتيب معروضات المتاحف ، وإعادة صياغة الشروح المكتوبة على البطاقات المثبتة على هذه المعروضات، ويوصى الكاتب بتخصيص جانب من المتاحف الإسلامية ، لتاريخ المناطق الإسلامية بعد ثورة اكتوبر لكى يوازن الزائرون بين حال التدين والتخلف وبين حال الإلحاد والتقدم .

كما ينصح الكاتب المسئولين عن هذه المتاحف بأن يفصلوا فصلا تاما بين العادات والتقاليد القومية وبين غيرها من شعائر الاسلام . ثم يورد ماخذه على الطريقة التى اتبعها متحف تاريخ شعوب أوزبكستان فى طشقند فى اعتباره الختان وتقريب الأضاحى من بين العادات والطقوس الشعبية . وفى رأيه ورأى الكثيرين أن الخلط بين مظاهر القومية ومظاهر الدين يؤدى إلى اعتقاد كل منهما بالآخر،على حين أن القضاء على كليهما فى ان واحد،هو من أهم الأهداف التى يقصد إليها الحزب والدولة (٣) .

---

(١) أنظر المرجع السابق : ص ٦١

(٢) انظر الكتاب ص ١٣

(٣) نشر هذا المقال ضمن مجموعة مقالات ضمها كتاب بعنوان (الإلحاد والدين والعصر) بالروسية . لينينجراد ١٩٧٣ م . ص ١٢٠ ـ ١٣٦ . نقلا عن د . مصلوح المرجع السابق ص ٧١ ـ ٧٢ .

بل الأبشع من هذا أن الملحدين يعملون على إدخال طقوس وعادات وتقاليد بالية ترجع إلى جاهلية ما قبل الإسلام،وذلك من أجل تمييع الشخصية الدينية والقومية للشعوب الإسلامية،وقطع صلة هذه الشعوب بالإسلام والقومية التركية، فيسهل ترويضها (١) .

إصدار الكتب والمجلات والصحف الالحادية التى تتناول الإسلام بالتزييف والتحريف باللغات القومية وتوزيعها بين الجمهوريات الإسلامية . فى حين أنه تقتصر دعوة رجال الدين إلى الإسلام على مجلات معدودة تصدرها الجمعيات الدينية تحت سيف الرقابة . فتخرج فى صورة هزيلة لا تنفع الإسلام أكثر ما تضره

إستخدام وسائل الإعلام كالاذاعة والتليفزيون والمسرحيات والقصص والأدب الروائى فى تشويه وتزييف تاريخ الشعوب الاسلامية،وإثارة الطبقة الكادحة على طبقة الاقطاعيين . وايضا فى التشكيك فى الإسلام وتاريخه . وليس أبلغ ما يؤكد هذا تلك الواقعة التى أوردها د . مصلوح أثناء زيارته لروسيا فيقول : « لقد شهدنا ذات ليلة فى موسكو مسرحية قدمها مسرح العرائس بعنوان الكوميديا الإلهية . وقد فوجئنا بأن المسرحية لا تمت لكوميديا دانتى إلا بصلة الاشتراك فى العنوان،وأما مضمونه فكان عرضا بالدمى والعرائس لقصة خلق سيدنا ادم وأمنا حواء،كما اوردتها الكتب المقدسة . وتظهر على المسرح من بين الدمى دمية كبيرة يمثلون بها ذات الله سبحانه فى صورة هزلية مقيتة . وأذكر أن أبداننا كانت تقشعر لهول ما سمعنا من حوار يجرى على ألسنة الدمى . وزادنا ألما نفسى ألم ما كان يخترق أسماعنا من ضحكات فارغة مجنونة تتردد أصداؤها فى القاعة سخرية واستهزاء بذات الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله .

وكان عزاؤنا فى تلك اللحظات الكابية ، ما كنا نردده من قول الله فى محكم كتابه : « من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » (البقرة ٩٨) (٢) .

هذا هو المصير المشئوم الذى آلت إليه شعوب تركستان . وهذا هو الواقع المرير الذين يعيشون فيه . ولك على الرغم من محاولات روسيا الشيوعية من تمزيق

---

(١) عالج هذا الموضوع أ . سليموف سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الأوزبكستانى فى مقال بعنوان (حول استخدام الطقوس والتقاليد الشعبية فى العمل السياسى الايديولوجى) وقد نشر هذا المقال فى مجموعة بعنوان (من تجارب العمل الايديولوجى بالروسية) موسكو ١٩٧٣ . ص ٢٨٨ ــ ٢٩٦ . نقلا عن المرجع السابق ص ٧٢ ــ ٧٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ٧٠

شمل الشعوب التركستانية، وتقسيمهم الى جمهوريات نسبة الى لهجاتهم المختلفة التى تنحدر جميعها الى أصل لغة واحدة وهى اللغة التركية الجغتائية، ورغم تغيير حروف هجائهم العربية إلى الحروف الروسية التى تختلف عن الحروف التركية . بهدف قطع كل العلاقات التاريخية والثقافية بين الأجيال الحاضرة وبين تاريخهم العريق تمهيدا لترويسهم ثم القضاء بعد ذلك على الدين الإسلامى قضاء مبرما .

إلا ان شعوب تركستان المسلمة . على الرغم ممن انخدع من أهلها بالسياسة الشيوعية . وأنجرف فى تيارها . وأصبح من الموالين لها . فارتد عن دينه . مازال هناك من بين هذه الشعوب ، من يقفون صخرة منيعة فى وجه تيار الإلحاد الجارف يتمسكون بدينهم وتدينهم . ويؤكد هذا أقوال الكتاب السوفيت، نذكر منها على سبيل المثال ما قام د . مصلوح بترجمته فى كتابه المسلمون بين المطرقة والسندان :

يقول الكاتب الروسى أ . ز . بيراموف فى مقاله له بعنوان (خصائص نشر الإلحاد بين أفراد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى) إن لنشر الالحاد بين أفراد المسلمين خصائصه وصعوباته وتعقيداته . ثم يقر أن الإسلام لا ينتشر عن طريق الأئمة فحسب بل كذلك عن طريق المواظبين على زيارة المساجد، وعن طريق المشايخ المتجولين والمتدينات من العجائز . أولئك الذين يستغلون نفوذ التقدم فى السن . وهو نفوذ واسع الانتشار بين الشعوب الشرقية .

ويؤثر الرأى العام الذى يكونه هؤلاء أيضا على غير المؤمنين . فعندما نجد الانسان غير المؤمن الواقع تحت تأثيرهم لا يعلق على جدران شقته مثلا ايات من القرآن . ولكن زوجته لا تجرؤ على الجلوس إلى مائدة واحدة مع الرجال . أو نجده لا يصوم رمضان ولكنه يحتفل بعيد الأضحى . أو نجده لا يحضر الجمعيات فى المساجد ولكنه يقوم بختان ولده . مثل هذا الانفصام فى الشخصية يهيىء التربة الصالحة للمتدين . وعندما يحضر غير المؤمنين عيدا دينيا، فإنهم لا يختلفون من حيث المظهر عن المؤمنين فى شىء . نفس الكلمات ونفس الاهتمامات . وهذا سلوك يؤثر بالسلب على المتدينين بترسيخ تدينهم . وعلى الشباب الذين يقلدون الكبار . انهم فرملة لها خطرها فى سبيل الداعية الملحد . ومن ثم يرى أنه ليس من قبيل المصادفة أن يتجمع الكثيرون فى الأعياد القومية حتى من غير المؤمنين فى الشارع قرب المسجد (١) .

---

(١) نشر هذا المقال ضمن مجموعة مقالات فى كتاب بعنوان (نشر الإلحاد بين أفراد المتدينين) بالروسية . وقد أصدر هذا الكتاب معهد الالحاد العلمى التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى عام ١٩٦٧م، وأعيد طبعه عاد ١٩٧٤ . ويشغل المقال الصفحات ١١٣ ــ ١٢٦ . وقد قام د . مصلوح مشكورا بترجمته إلى العربية . ونشر بمجلة الدعوة السعودية على عددين . ولكن للأسف لم أتمكن من الحصول عليه .

ويقول الكاتب بابلاكوف فى مقال نشرته جمعية المعرفة « توجد أعلى نسبة للتدين فى تلك المناطق التى كانت قبل ثورة أكتوبر العظيمة متخلفة اقتصاديا وثقافيا ، ومايزال تأثير شعائر الاسلام حتى الآن على سبيل المثال قويا باقيا فى آسيا الوسطى . وتقدر الباحثة م . جباروفا أن عملية الختان تجرى لمعظم الصبيان فى شمالى تاجيكستان وجنوبيها، كما أن جميع المسلمين تقريبا فى مدينة كولباب يصومون رمضان » .

أما الرأى الأخير الذى نورده فهو رأى الكاتب س . قربانوف يقول فيه : « إن وعى الغالبية العظمى من الشباب السوفيتى قد تحرر من رواسب الدين، وأصبح الإلحاد صفة لا تنفصم عن البنية الروحية لفتياننا وفتياتنا ، غير أن بعض شبابنا مايزال خاضعا لتأثير الدين ، وفيما يتعلق بالإسلام . هناك أسباب كثيرة جعلت تأثيره على الفتيات والفتيان مايزال أقوى من غيره من الأديان .

كما يحكى لنا قربانوف أن الآباء فى المناطق الإسلامية يحرصون كل الحرص على تلقين أبنائهم قواعد الإسلام وفقه العبادات والسيرة الشريفة، وقد قامت الشرطة السوفيتية فى فرغانة باكتشاف وضبط مدرسة خاصة خارجة على القانون، تضم ثلاثة وعشرين طفلا، أقامها السكان لتفقيه أبنائهم فى دينهم إلى جانب إلتحاقهم كتلاميذ عاديين بالتعليم العام . واكتشفت محاولات مماثلة فى أندريجان ونامانجان وداغستان وغيرها (١) .

والنتيجة التى نصل إليها بعد عرض أقوال الكتاب السوفيت، هو أن الإسلام دين الحق الأزلى ، الذى لا يقهر أمام متغيرات الظروف وتقلبات الزمان ، وإنه باق حتى الساعة ، وأن معاناة مسلمى هذه الشعوب وصبرهم أمام تيار الإلحاد الجارف منذ ستة وستين عاما حتى الآن، ليس إلا بعون من الله عز وجل ولابد له من نصرة فى يوما ما، ويدعم هذا ويؤكده تلك الآية الكريمة التى جاءت فى محكم تنزيله : « ولينصرن الله من ينصره ، إنه لقوى عزيز »(٢) صدق الله العظيم .

= وجدير بالذكر هنا أن نشير إلى موقف السلطات الروسية إيذاء المسلمين فى هذه المناسبات بتلك الواقعة التى شاهدها د . مصلوح أثناء زيارته لروسيا فيقول : وكثيرا ما كنا نرى إخواننا من المسلمين والمسلمات يتجمعون عند مسجد موسكو . وفى محطة المترو القريبة من المسجد ليتبادلوا التهنئة بعيد الفطر أو عيد الأضحى . فتقوم الشرطة بتفريق جموعهم دون أن يعيروا أذنا لرجاء المسلمين وتوسلاتهم ، وكثيرا ما ترتفع صيحات المسلمين قائلين : أنهما يومان فى السنة ، ألا تسمحون لنا بيومين فقط فى كل عام ؟ أما ذريعة تفريق المجتمعين من المسلمين فهى عند الشرطة تعطيل حركة المرور .
أنظر بالكتاب ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(١) قربانوف : الاسلام والشباب فى العصر الحديث . بالروسية ، وقد نشر المقال فى مجموعة بعنوان الشباب والالحاد . موسكو ١٩٧١ . ص ٩٠ .

(٢) سورة الحج ، آية ٤٠ .

المبحث الثاني

تركستان من خلال الأدب

تركستان من خلال الأدب

تمهيـد :

لما كان الأدب مرآة العصر ينعكس فيها أحداثه وقضاياه ، فقد أردت أن أقدم للقارىء صورة حية لتلك القضايا التى يعايشها مسلمو تركستان فى ظل الحكم السوفيتى ، والتى سبق أن ناقشتها عند حديثى عن تاريخهم وذلك من خلال أدبهم فقمت بترجمة مجموعة من قصص الأدب الأوزبكى إلى العربية نقلا عن الأدب الفارسى ٠

ومن الجدير قبل أن نعرض مجموعة القصص المترجمة إلى العربية أن نعرف القارىء تعريفا سريعا بجمهورية أوزبكستان السوفيتية موطن أدبائها ، وبالأدب الأوزبكى الذى تنتمى إليه ٠

جمهورية أوزبكستان السوفيتية

أوزبكستان هى واحدة من إحدى عشرة جمهورية إسلامية من الجمهوريات الخمس عشرة المكونة للاتحاد السوفيتى ، التى حصلت على استقلالها الذاتى وأعلنت تأسيس الجمهورية عام ١٩٢٤ م ، ضمن اتحاد الجمهوريات السوفيتية ٠

وتقع جمهورية أوزبكستان فى وسط آسيا ، وتمتد رقعتها من جبال تيانشان غربا حتى نهر الأورال شرقاً ، وتبلغ مساحتها الكلية حسب إحصائية عام ١٩٧٩ م (٥٨٣ / ٤٤٩) كيلو متر مربع ٠

أما بالنسبة لطبوغرفية أوزبكستان فهى مختلفة التضاريس ، فالجزء الجنوبى الشرقى منها يشمل سفوح التلال ووديان جبال تيانشان ، أما منخفضات الجزء الشمالى الغربى فتشغلها صحراء قيول قوم بين مجرى نهرى ساردريا وأمودريا ٠

أما مناخها فهو مناخ قارى شديد الحرارة صيفا ، قارس البرودة شتاء

طشقند عاصمة جمهورية ازبكستان ،وأهم مدنها بخارى وسمرقند وأنديهان ، وفرجانا . وكوكابند . وهى أكثر المدن ازدحاما بالسكان (١) .

ويبلغ عدد سكان جمهورية أوزبكستان السوڤيتية حسب الاحصائيات الرسمية السوڤيتية لعام ١٩٧٨ م أربعة عشر مليونا وأربعمائة ألف نسمة، يبلغ عدد المسلمين من بينهم اثنى عشر مليونا . أى أن المسلمين يشكلون نسبة خمسة وثمانين فى المائة من سكانها الأصليين (٢)

ويعيش ما يقرب من خمسة وسبعين فى المائة من الأوزبك فى الريف مزارعين بالوراثة . يقومون بزراعة القطن حيث يصل انتاجهم إلى ثلثى انتاج الاتحاد السوڤيتى من القطن (٣)

أما الروس فيشكلون ثلاثة عشر فى المائة من السكان ولا يسكنون إلا المدن ، بالإضافة إلى الكوريين الذين نفوا عام ١٩٣٠ م من الشرق الأقصى إلى الاتحاد السوڤيتى ، حيث يقيمون فى أوزبكستان ويشتغلون بزراعة الأرز (٤)

والمجتمع الأوزبكى مجتمع ريفى تحكمه العادات والتقاليد . فالرجل هو صاحب السلطة المطلقة ، كما أنهم يتعصبون للأصل ويهتمون بشجرة النسب . وهم مسلمون سنيون .

وترجع سلالة الأوزبك الى خليط من الشعوب المغولية وشعوب وسط آسيا التركية ، لكنهم فى صفاتهم الجسدية أكثر شبها بالمغول (١) .

أما بالنسبة للنشاط الاقتصادى بجمهورية أوزبكستان، فهى كما سبق أن ذكرت أكثر جمهورية منتجة للقطن بين جمهوريات الاتحاد السوڤيتى، بالإضافة إلى إنتاج الأسمدة، واستخراج المعادن كالغاز الطبيعى والفحم والزنك . والصلب . والنحاس . واليورانيوم .

---

(١) Lexicon Universal Encylopedia, v: 19, P: 499. New york, 1983

(٢) د . عادل طه : المسلمون فى العالم ، ص ١١٠ .

(٣) Uzbekistan Socialist Republic Soviet, Transelated from Russ iam by Valenti Cocht- kov, P: 10, Moscow, 1982

(٤) Lexicon Universal Lncylopedia, V: 19, P: 499

أهم الصناعات هناك : صناعة التعدين ، والصناعات الكيماوية والطاقة ، وصناعة المنتجات القطنية ، وتجفيف الفاكهة وصناعة الفراء الفارسى المعروف بالقراقول (١)

وتصدر أوزبكستان إلى أكثر من سبعين دولة من دول العالم ماكينات جنى القطن وماكينات النسيج (٢)

---

1 - Lexicon Universal Encyclopedia, V : 19, P : 499

2 - Lexleen Universal encyclopedia, V : 19, P ; 499 - Ùzbekistan Socia listrepublic of Soulet Union, P : 11

3 - Uzbek istan Socialist Republic of Soulet Union, P : 10

الأدب الأوزبكى

يرجع ازدهار الأدب الأوزبكى إلى القرن السادس عشر الميلادى . على يد الأمير على شيرنوائى (١) الذى كان عالما وشاعرا محبا للأدب وراعيا له .

غير أن نشأة الأدب الأوزبكى الروسى (٢) ترجع إلى عام ١٩١٤ م على يد الأديب عبد الله القادرى الذى يعد أحد كتاب القصة الأوزبكيين العظام فى ذلك الوقت . فقد كان يتسم بالواقعية والتصوير الصادق لمشاعر الانسان النفسية .

ولكن على الرغم من هذا . فإن كتابات عبد الله القادرى وغيره من الكتاب الأوزبكيين خلال ثلاثين عاما لم تكن تغطى جميع جوانب شخصية الإنسان الأوزبكى الحديث(٣)الذى إتخذ أسلوب حياته نمطا جديدا عن سالفيه .

---

(١) على شيرنوائى : أسمه بالكامل على شير بن الوس ياكيجنه نوائى الجغتائى كان أحد أبناء أسرة جغتاى بن جنكيز خان العظام الذين حكموا ما وراء النهر وكاشغر وبلخ وبدخشان . ولد عام ٨٤٤ هـ وتوفى عام ٩٠٦ أو ٩٠٧ هـ . اشتغل بالوزارة فى عصر السلطان التيمورى حسين ميرزا بايقرا . كان عالما وشاعرا . وله أشعار كثيرة باللغتين الفارسية والتركية الجغتائية . لذلك أشتهر بذى اللسانين . وتخلصه فى أشعاره التركية هو (نوائى) أما فى الأشعار الفارسية (فانى أو فنائى) ترك مؤلفات كثيرة بالفارسية والتركية الجغتائية يصل عددها إلى ثلاثمائة وسبعين مؤلف . انظر : على أكبر دهخدا : لغت نامة . ص ٢٢١ . طبع تهران ١٣٤٤ هـ . ش .

(٢) المقصود بالأدب الاوزبكى الروسى : أى الأدب الذى كتب باللغة الاوزبكية الحديثة أى المكتوبة بالحروف الروسية . أما عن أصل اللغة الاوزبكية فهى إحدى لهجات اللغة التركية الشرقية الخاقانية التى عرفت فيما بعد باللغة الجغتائية . واللهجة الاوزبكية هى اللهجة الفصحى للهجات الجغتائية. مثل اللهجة القازاقية والتركمانية والقيرقيزية . وكان لها أدب مكتوب قبل الإسلام وبعده من كبار أدبائها على شير نوائى .

(٣) المقصود بالانسان الأوزبكى الحديث هو الشخص الذى نشأ ونما فى ظل الثورة الشيوعية التى قامت عام ١٩١٧ م . فقد عملت روسيا على ترويس الشعب الأوزبكى المسلم بترحيل ونفى كل ما يزيد عمره عن خمسة وعشرين عاما الى مجاهل سيبريا . وتنشئة جيل من الأطفال والشباب نشأة روسية فى الافكار والمعتقدات .

وفى عام ١٩٤٣ م ظهر أثر ايبك وغيره من الكتاب أمثال شرف رشيدوف ، وأسعد مختار ، ومير حسن ، وحميد غلام وكثيرين غيرهم ، فغيروا أنماط الأدب الأوزبكى وأفكاره بما يساير جوانب شخصية الانسان الأوزبكى الحديث،فصارت كتاباتهم مرآة تعكس واقع المجتمع الأوزبكى الحديث ، ومشاكل شبابه وأفكاره .

وقد اتسم الأدب الأوزبكى فى الوقت المعاصر بالسرعة والواقعية ، وخاصة ما ينشر منه بالصحف من مقالات أدبية وصحفية، تتناول جوانب الحياة العامة المختلفة(١).

---

(٢) مرغ سعادت ؛ داستانهاى نويسند گان ازبك . ترجمه بفارسى ازمهدى رستمى ، صفحة ٤ ، چاپ اتحاد شوروى . تاشكند سال ١٩٨٢ م .

القصة الأولى

المقدمـــة :

هذه القصص التى قمت على ترجمتها هى مجموعة قصص قصيرة ، كتبها بعض الكتاب الأوزبكيين ممن عاصروا الثورة الروسية ، ومن كتابات الأدباء المعاصرين الذين مازالوا على قيد الحياة ٠

وقد قامت مؤسسة بروجرس للنشر فى طشقند بترجمتها عن الأوزبكية الروسية الى الفارسية,ونشرتها عام١٩٨٢م تحت عنوان (مرغ سعادت) أى طائر السعادة ٠

أما أولى هذه القصص المترجمة فعنوانها (بينا شوى نابينا يان) أى بصـيرة العميان ، وكاتبها هو الكاتب القصصى المعروف بين الأوزبك عبد الله القهار ، وهو من الكتاب الذين عاصروا الثورة الروسية ، فقد ولد عام ١٩٠٦ م وتوفى عام ١٩٦٨ م، وكان أحد رواد فن كتابة القصة الذين ساهموا فى ازدهار هذا الفن في الأدب الأوزبكى ٠

ومن مؤلفاته مجموعة قصصية تحت عنوان (داستانها) أى الحكايات ، ألفها عام ١٩٣٩ م ، ومجموعة أخرى تحت عنوان (سالها) أى السنوات ألفها عام ١٩٤٧ م ، كما له أيضا قصة فى العشق الدرامى تحت عنوان (سوزنى ابريشمى) أى الثوب الحريرى وقصة تحت عنوان (سراب) أى السراب ، وأخرى تحت عنوان (چراغ هاى قوش چنار) أى مصابيح صقر شجرة الحناء ، أما آخر أعماله الأدبية فهى قصة تحت عنوان (حكاياتى درباره گذشته) أى ذكريات صوب الماضى ، وقد نال عليها جائزة الجمهورية الأوزبكية السوفيتية المعروفة بجائزة حمزة ٠

وكما هو الواضح فإن جميع الكتاب الأوزبكيين الذين عاصروا قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧ م أو المعاصرين والذين تنشر المؤسسات السوفيتية انتاجهم الأدبى هم مسلمو المذهب ولكنهم روسيو المشرب ، ومع هذا فإننى اخترت هذه القصة من بين المجموعة القصصية التى بين يدئ لترجمتها ، لأنها تعبر بين سطورها عن الواقع المرير الذى كان يعيشه المجاهدون المسلمون وشعب الأوزبك المسكين إبان الاحتلال

الروسى لبلادهم ، وجهاد الفدائيين ضد القوات الروسية ، وهذا ما سوف أوضحه عند تحليل القصة .

وقد ألتقيت بأحد أبناء المجاهدين المسلمين الأوزبكيين ، والذى شارك هو الآخر فى الثورة على الاحتلال الروسى ، ثم اضطر مع والده وأسرته إلى اللجوء ، هذا المجاهد هو السيد نصر الله مبشر الطرازى الذى كان يشغل منصب رئيس قسم الدراسات الشرقية بدار الكتب المصرية حتى أحيل إلى التقاعد منذ عامين تقريبا ، وعن طريقه تعرفت على شخصية أحد أبطال القصة الرئيسية وهى شخصية القورباشى الأعور

وقبل أن أعرف بشخصية القورباشى الأعور هذا، ينبغى أن أعرف أولاً بمعنى كلمة قورباشى ، فقورباشى فى اللغة التركية الجغتائية بمعنى قائد السلاح ، وأولئك الذين عرفوا بالقورباشية ، هم كما سبق أن ذكرت المجاهدون الذين شكلوا حركة المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الروسى لبلادهم ، وقد استمرت هذه الحركة منذ عام ١٩١٨ حتى ١٩٣٢ م ، حيث قضى عليها الروس وراح ضحيتها أكثر من خمسة ملايين من الشهداء (١) .

وقد أطلق الروس على فدائى حركة المقاومة اسم (باسماچ ها) (أى البسمجية باللغة العربية) ومعنى باسماچ باللغة التركية الجغتائية المهاجم المباغت ، وواضح من هذه التسمية أنه إصطلاح سياسى مغرض أطلقه الروس عليهم للتعريض بهم والسخرية منهم .

ونعود إلى القورباشى البطل الثانى لقصتنا فهو المجاهد شير محمد بك ، وكان أعور فعلا ، وقد اشتهر باسم گورشيرمت(٢) أى شير محمد الأعور .

وكان شير محمد بك قائد كتيبة الفدائيين فى إمارة فرغانة المعروفة الآن بخوقند لحركة المقاومة الشعبية التى قامت منذ عام ١٩١٨ م فى جميع أرجاء تركستان ، حيث كان فدائيو تركستان يشكلون فى كل إمارة كتيبة للمقاومة الشعبية، يتزعمها أحدهم ويلقب بقورباشى . ثم يقومون بأعمال حرب العصابات لعدم توفر الأسلحة

---

(١) أنظر تفاصيل حركة المقاومة . ص ٢٥ ـ ٢٧

(٢) گور باللغة التركية بمعنى أعور . ومت المقصود بها أسم محمد . فكان التركستانيون ينادون كل من يسمى محمدا بمت على سبيل التبجيل لسيدنا محمد عليه السلام ، فلا يليق أن ينادى أحد باسمه .

لديهم ، فيسطون على مخازن الأسلحة والذخيرة الروسية ، تلك المخازن المزودة بأحدث أسلحة العصر ، فينهبونها ، ويخبئون الأسلحة فى باطن الجبال التى تميزت بها طبيعة بلادهم ، ثم يقومون بعد ذلك بمهاجمة القوات الروسية .

ولما نجح الروس فى القضاء على حركة المقاومة الشعبية عام ١٩٣٢ م لجأ شير محمد بك إلى أفغانستان كغيره من رفقائه المجاهدين ، وأصبحوا فى ضيافة حكومتها.

وفى أثناء قيام الحرب العالمية الثانية ، وجدنا السيد عالم خان الذى كان حاكم بخارى فى اثناء الاحتلال الروسى لها ، ولجأ هو أيضا إلى افغانستان ينتهز فرصة اندحار الروس على يد الألمان واستيلائهم على استلنجراد ، ووصولهم الى مسافة مائة وخمسين كيلو متر من موسكو ، وقطعهم الطريق عن الروس إلى القوقاز وجورجيا وأرمينيا ، فشكل حركة مقاومة امتدادا للحركة السابقة بمساندة الحكومة الأفغانية لتحرير تركستان ، بقيادة السيد مبشر الطرازى على جبهة باميير وبدخشان (١) . وكان شير محمد بك والسيد نصر الله بن السيد مبشر الطرازى رفقاء فى هذه الحركة، ولكن هذه الحركة لم تنجح بسبب ضغط روسيا على الحكومة الأفغانية بتصفيتها . فألقت القبض على ثلاثة وخمسين من رجالها ، كان من بينهم السيد نصر الله ووالده قائد الحركة وشير محمد بك ، وسجنوا بكابل مدة خمس سنوات وثلاثة وثلاثين يوما ، حتى أفرج عنهم عام ١٩٤٩ م . هاجر بعدها السيد نصر الله ووالده إلى مصر حيث توفى والده بها ، أما بطل قصتنا شير محمد بك فقد هاجر هو وبعض المجاهدين التركستانيين رفقاء الحركة إلى تركيا حيث توفى هناك .

وكما سبق أن ذكرت ، فإن كاتب القصة مسلم المذهب روسى المشرب،فمن الطبيعى أنه كتب أحداثها القصة ومواقفها بطريقة تساير السياسة الروسية فجاءت مغايرة للواقع ومشوهة للحقائق ، فصور القورباشى الأعور فى القصة فى صورة زعيم للعصابات المناوئة للثورة الروسية،الذى ألقى القبض على أحمد پلوان بطل القصة ، للانتقام منه بعد أن غدر به ، وقتل رفيقه الجريح برصاص الجنود الروسيين ، حينما لجأ إليه وخبأه عنده خوفا من بطشهم ، إلا أننا نستطيع أن نتلمس بين السطور الواقع المرير الذى كان يعيشه كل من القورباشى الأعور قائد حركة المقاومة وأحمد پلوان ذلك القروى المسكين، وهما رمز كل الأوزبك،.وكيف عانوا من التعسف السوڤيتى .

والآن يجمل بنا أن نقدم ترجمة القصة أولا ، ثم نقوم بتحليلها بعد ذلك .

---

(١) باميير وبدخشان : مدينتان تقعان على الحدود الأفغانية الروسية .

وعلى هذا النحو كان أحمد بلوان ينتظر الموت والأصدق فى القول أن الموت كان ينتظر أحمد اذ لم يكن لديه أية رغبة فى الحياة فى هذه الدنيا . لقد كان مثل كبش مقيد بحبل سميك قد وقف أمام راعى القطيع . ولكن أوكل لراعى القطيع فى هذه المرة وظيفة الجلاد، الذى لم يترك من جسده مكانا دون جلد .

كان هذا الجلاد يتسم بقصر القامة مع قوة فى العضلات وامتلاء فى البنيان . فما أن رفع صوته فى وجه بلوان ، حتى إهتز بلوان كعود قصب هذيل ، ثم سقط على الأرض فاتحا قدميه . أما يداه فمغلولتان خلف ظهره . مغشيا عليه فى حالة اعياء شديد .

لكن الجلاد ركل أحمد بلوان ركلة أطاحت به إلى أعلى ،اذ سارع بالوقوف وكتفاه يرتعدان . لقد أيقن أن عظامه قد تحطمت، فهل سيستطيع التحرك من مكانه أم لا ؟ ولكنه أدرك على الفور فى حسرة ومرارة أنه مادام جسده منهكا، فأى أهمية بعد ذلك للحركة أو السكون !!

ومرة ثانية جهر الجلاد بصوته فى وجه أحمد بلوان . ولكن جهرته هذه كانت أقل من سابقتها . ومع هذا دفعته كى يخطو خطوات سريعة، كى يقف أمام متكىء القورباشى رئيس كتيبة العصابات المناوئة للسلطات الروسية . وكان قد جلس متكئأ ومغطيأ إحدى بعصابة ذات خطوط ، ووقف بجواره طبيب هندى وخلفه صاحب الدار . وهو شخص مسن قصير القمامة . كثير الحركة أشبه بالخفاش .

فصاح القورباشى فى عصبية وشراسة بدت فى عينه المبصرة : ألاتقول لنا عن أسماء رفاقك الملاعين ؟

سكت أحمد بلوان مفكرا ماذا يستطيع أن يضيفه على ما سبق أن قاله . نعم انه قتل اسماعيل أفندى . ولكن ليس له شريك فى قتله !

لقد كان اسماعيل أفندى الرفيق الحميم للقورباشى . بل كان فى الحقيقة ساعده الأيمن . وعندما كانوا على مقربة من الكارمزار(١)أطلق أحد الفرسان أصحاب النجمة الحمراء رصاصة اخترقت صدر اسماعيل أفندى . فسحبه القورباشى من

---

(١) يبدو أنه اسم مكان أو منطقة . وقد أوردته كما جاء فى المتن الفارسى .

ميدان القتال وفربه إلى الجبال . دون أن يجد الفرصة لتضميد جراحه . حيث كان الفرسان أصحاب القلنسوات المدببة التى تبرز فى مقدمتها النجمة الحمراء مسرعين فى تعقب الفارين فى سرعة هائلة لا تقبل التوقف للحظة واحدة .

وفى الليلة التالية اصطحب القورباشى نصف قواده ووصلوا إلى قرية كان يعيش فيها أحمد بلوان . وكانت الدماء مازالت تسيل من إسماعيل أفندى . فأراد القورباشى ألا يحمله أكثر من هذا . وأن يتركه فى بيت انسان يتوخى فيه الأمانة .

كان للقورباشى أعوان فى هذه القرية . يمكن الاعتماد عليهم إلى حد كبير . ويوجد أيضا من هم يدعون مناوأة السلطة، وهم غير أوفياء له . فكيف يترك إسماعيل أفندى لديهم ! . كما كانت هناك بيوت كبار ملاك الأراضى . ولكن القورباشى كان يعلم جيدا أن جنود النجمة الحمراء يكنون العداء لهؤلاء الملاك . ففكر كثيرا . وأدرك أن أفضل مأمن له هو أن يتركه فى بيت فقير معدم . لذا نراه يترك رفيقه الذى كاد أن يفارق الحياة فى بيت تعيس الحظ أحمد بلوان .

قبل أحمد بلوان الأفندى من القورباشى بلا تردد . وأمنَ على ما أمر به.وهو ألا يكتفى بتضميد جراح اسماعيل أفندى فقط . بل سيعمل جاهدا على ألا يقلق راحته . ولكن ما أن اختفت أصوات سنابك الخيل وابتلعها جوف الليل . حيث سارع القورباشى ورفاقه إلى مناطق أكثر أمنا . فإن أحمد بلوان لم ينتظر شفاء الأفندى أو موته . لذا سارع بتوفير الراحة الأبدية له، بأن ضربه ضربة فأس قوية أودت بحياته،وذلك خوفا من ألا يعود القورباشى لاستعادة رفيقه .

وبعد مضى سبعة وثلاثين يوما على وفاة الأفندى . أرسل القورباشى أحد الملاك ليستطلع أخبار أحمد بلوان . ولما علم ما حدث . ألقى القبض على أحمد بلوان . وقيد يديه . وألقى به على ظهر حصان وكأنه حمل . وظل الحصان يسير ببلوان مدة يومين حتى وجد بلوان نفسه فى يوم الأربعين لمقتل الأفندى أمام رفيقه الوفى القورباشى القصاص .

وعلى الفور وقف أمام عدوه ينتظر ما ينطق له . ولكن القورباشى ظل ساكنا ذلك السكون الذى يسبق العاصفة . وكان الطبيب والرجل المسن المرتعد قدجلسا فى مواجهته . والاعياء يبدو فى أعينهما . وهما ينظران الى الجلاد والفرسان المترجلين والمتعبين من الانتظار الممل دون أن تصدر عنهم أية حركة .

وفى اخر الأمر تحرك القورباشى ورفع رأسه . ونظر إلى السماء فتذكر على الفور أنه فى وقت الغروب، يجب أن يتوجه فرسانه للإغارة على القرية المجاورة من

أجل تصفية الحساب مع الأعداء، حيث لم يكن هذا الحساب قدانتهى بعد ، إن الشمس قد اقتربت من الغروب، إذ لم يبق على تمام غروبها أكثر من ساعتين أو ثلاث .

ولذلك صمم القورباشى على أن يسارع بتصفية حسابه مع الخسيس ، فتوجه على الفور صوب أحمد بلوان وعينه تتقد شررا وشراسة ، لقد بدت وكأنها عين ذئب !!

بادله أحمد بلوان النظرات على الرغم من نظراته المملوءة بالتهديد والوعيد وظل ناظراً إليه ، ولم يسقط بصره عنه .

فأسرع القورباشى صوبه ولكمه لكمة قوية فى حلقه قائلا : خائن وغد ! هل تعتقد أن رأسك ستعتق من الجلاد ؟

فحرك أحمد بلوان أصابعه المتورمة والمقيدة خلف ظهره ، ونظر إلى وجه القورباشى وقال :

سيدى ! لقد قلت كل شىء ، وليس لدى أكثر من هذا لأقوله ، لقد كان الأفندى يقتل المزارعين ، فقتلته أنا أيضا ، والآن أنتم تريدون أن تقتلوننى ، ولكن قبل إعدامى أريد القول بأننى أديت عملا فى سبيل الله ، حتى .... فقاطعه القورباشى صائحا : أيها الأحمق لا تدنس اسم الله ، فضحك أحمد بلوان ضحكة كلها حسرة وأسى وقال : أنىّ لى أن أفكر فى هذا الدنس ؟ كلا يا سيدى إننى فى الدقائق الأخيرة من حياتى أفكر فى أمر آخر ، وأود من شخصكم السامى المقام أن تأذنوا لى بأداء عمل تفيدون منه أنتم أرباب العقل والعلم

صاح القورباشى غاضبا : أية فائدة سأجنيها من ورائك ؟
رد أحمد بلوان قائلا : سيدى ! أنتم مثل الأسد القوى ، وأنا مثل نحلة العسل الضعيفة ، ولعلكم تعلمون أن الأسد حينما يتجاهل النحلة قد يهلك ويفنى، وأنت أيها السيد القوى تتجاهلنى . ولكن فى مقدورى أن أفشى لك سرا !!

بدت على وجه القورباشى حركات هستيرية تجمع بين الضحك والغضب ، لكنه أخفاها على الفور ، وسارع بالتعبير عن غضبه وعدم ميله إلى مواصلة الحديث ، فقال فى عصبية : إننى أعلم باطنك أيها الكلب !

فاعترض أحمد بلوان بشدة وقال : إنك تبصرنى بعين واحدة، بينما تستطيع أن تبصرنى بكلتا عينيك ، ولما لم يبد على وجه القورباشى سوى ملامح الغضب وعدم

التفاهم ، أضاف فى هدوء قائلا : سيدى عينك اليسرى محرومة من البصر بسبب ما النار الذى ألقىَ عليها . ولكننى أستطيع أن أعيد البصر لعينك الكفيفة . لأننى أعلم سر شفاء العيون .

وحينما تلفظ بكلمة شفاء . تلفت فجأةالطبيب الهندى الذى لم يكن على علم كاف باللغة الأوزبكية،وسأل : ماذا يقول هذا الرجل المحكوم عليه بالموت ؟

ففسروا للطبيب ماذا قال . فدقق النظر إلى أحمد بلوان وفكر قائلا فى نفسه : قطعا يقول كذبا . لكنه على الفور تشكك فى اعتقاده وسأل نفسه : لو أن كلام هذا الرجل كذب . فأى حقيقة يبغيها من وراء ذلك ؟

وفجأة رجع القورباشى صوب الطبيب وقال له : إننى أفوض لك سر هذا الوغد . فأنت لست ماهرا فى المعالجة ، لدرجة أنك لا تستطيع أن تشفى جسدك من المرض الذى يعتريك ثلاث مرات فى الأسبوع ويرعد جسدك . فافهم منه سر شفاء العور حتى يزداد علمك .

وضحك القورباشى مقهقها وألقى بنفسه على الوسائد التى وضعها الرجل المسن أسفله . ولولا هذه الوسائد لمات القورباشى من القهقة وكثرة إهتزاز كرشه الضخم . فسعادة القورباشى المفاجئة أثرت فى الآخرين لدرجة أن أكثر الرجال صرامة لم يتمالكوا أنفسهم من الضحك أمام ضحكه ، ماعدا الرجل المسن الأشبه بالخفاش فقد ظل مذهولا من ذلك الضحك . أما الطبيب فلم تبد عليه أية بادرة للتأثر !

وفى النهاية هدأ القورباشى ، ثم تنهد وقال : لقد أدركت خرافات هذا الأحمق ! فعليك أيها الطبيب أن تتحدث معه ، وسوف ألتز م الصمت وأنصت .

فهز الطبيب رأسه . واتجه صوب أحمد بلوان . وسأله فى جدية : هل استطعت أن تشفى أحدا من العور ؟

فأجاب أحمد بلوان فى هدوء ورزانة : كلا . أنا نفسى لم أشف أحدا ، ولكن معلمىذات مرة أعاد البصر لأعور . وصار ذلك الأعور مبصرا . ولكن معلمى صار أعور ومات .

فسأله : ما سبب موت هذا الرجل الذى منح بصره لغيره ؟

فحرك أحمد بلوان أصابعه المتورمة الفاقدة الحس . وقال فى هدوء : أنا أيضا حينما أمنح قوة إبصار أحد عينى لعين سيدى . سأصبح أعور .

فتمالك الطبيب نفسه ، ولم يبد أى تعجب على إجابته ، وسأله فى صورة أكثر جدية : ما اسم معلمك ؟

فأجاب أحمد بلوان : سوف أذكر اسم معلمى بعد ذلك . أى حينما يدرك الجميع أن أحمد بلوان لديه فعلا المقدرة على الشفاء .

فهز الطبيب رأسه وغلبه التفكير، ومع أن معتقدات هذا الطبيب كانت تفوق علمه ، إلا أنه كان قليل العلم فى كل فرع من فروع الطب . فما قاله أحمد بلوان غير ممكن ولو حتى عن طريق السحر- لكنه تذكر تعاليم معلميه القدماء الذين كانوا يؤكدون أنه لا يمكن الفصل بين الممكن والغير ممكن- لكن جهل القورباشى المعتوه جعله يستهزأ بالطبيب لعدم مقدرته على شفاء نفسه من مرض الملاريا ، وأعظم الأطباء كانوا يقفون عاجزين أمام بعض الأمراض ، لأن العلماء لم يكتشفوها بعدا .

ونظر الطبيب إلى احمد بلوان ، وخاطبه ـ مغيرا بعض الكلمات لعدم علمه باللغة الأوزبكية جيدا ـ قائلا : ما العقاقير والأعشاب اللازمة لشفاء القورباشى ؟

فأجاب أحمد بلوان : يلزمنى ستة أشياء هى : عود ريحان ، وثمرة تمر ، وبيضة ، وملعقة عسل ، وحبتان من قرنفل .

توفرت هذه الأشياء جميعها عدا الريحان فى منزل الرجل المسن الكثير الاهتزاز والحركة ، فأرسلوا أحد الفرسان لإحضاره .

وسأل الطبيب أحمد بلوان : هل يلزمك شىء آخر ؟
فأجاب : نعم وعاء نحاسى وشمعة .

أحضر الرجل المسن الشبيه بالخفاش كل الأشياء ، ثم طلب أحمد بلوان أن يلصقوا الشمع على عين القورباشى الكفيفة ، وأن يضعوا الوعاء على النار بعد ملئه بكوبين من الماء ، فقاموا بتنفيذ ما طلب . ولما غلى الماء أمر أحمد بلوان أن يذيبوا العسل فيه ثم يضيفوا إليه محتويات البيضة وثمرة التمر والقرنفل .

كان أحد الشبان يقف بجوار الوعاء فأضاف هذه الأشياء بالترتيب،ثم أمر أحمد بلوان بأن يعطوه الريحان حينما يحضرونه . فلما أحضروه أمر بإضافته أيضا إلى الوعاء .

وكان الطبيب يدقق النظر الى أحمد بلوان ، ولا يسقط بصره عنه ، ويراقبه فى كل ما يقوم بعمله ، دون أن يساوره أى شك . وحلق بفكره قائلا ما أجمل أن يكون

هذا الرجل عالما بذلك السر ا ثم بدأ على الفور يحصى المنافع التى يمكن أن يجنيها لو أدرك ذلك السر العظيم ، فهو قبل أى شىء أكثر احتياجا إلى التفرغ لمعالجة السادة . بل والأهم من ذلك أنه يستطيع العودة إلى موطنه الذى شرد منه بسبب دسائس الأطباء المنافقين الجهلاء ، ثم ماذا سيقول عنه الأطباء الحاسدون الجهلاء ؟ وماذا سيقول عنه الأطباء الحكماء ؟ وحينذاك أين سيخفون عيونهم الجريئة حينما يبصرون مابلغته من قدرة وعظمة، لم يبلغها أعظم أطباء العالم ولو فى الأحلام . وظل الطبيب الهندى يفكر وينظر على هذا النحو ، وبخار الماء يتصاعد ويغطى الوعاء .

وكان أحمد بلوان ينظر أيضا الى الوعاء ، وعندما إزداد البخار ، وصار الماء أبيض اللون ، أمر برفع الوعاء من على النار ، وأن يحضروا أحجارا لا تمتص الماء . فتقدم القورباشى فجأة وأمر قائلا : أحضروا الأحجار !

فأحضر ثلاثة من الشبان ثلاث كتل حجرية كبيرة يئنون من حملها وألقوها أمام أحمد بلوان ، فطلب منهم أن يضعوا كل واحدة على حدة ، ثم اختار حجرا يبلغ وزنه أربعة كيلو جرامات ، وقال : أنا لا أطمئن إلى أن هذا الحجر لا يمتص الماء ، ثم أمر أن يقوموا بنحته على شكل آلة حرث الأرض

فأمر القورباشى قائلا : أنجزوا هذا العمل . فاستعد شاب قوى البنيان بشفرة النحت التى يستخدمها الطحانون لصنع الطاحونة،وبدأ فى نحت الحجر .

ثم التفت أحمد بلوان إلى الطبيب وقال له : الآن يلزمنى دماء شخص ، ففكر الطبيب وقال له : من أين نأتى بالدماء .

فصاح أحمد بلوان مخاطبا القورباشى : سيدى إننى أريد دما ، أصدر أمر بأن يقطعوا أصبعى .

فدوى فى صحن الفناء الواسع صياح وضجيج يعبر عن القلق ، وفجأة هدأ الصياح

فكر القورباشى وهو يمشط لحيته المجعدة بأصابعه ، وقال فى مسكنة : إذن الأمر يتطلب أن نفك قيد يديك .

فسأله أحمد بلوان وهو ينظر إليه نظرة جريئة : لم لا ؟ لعلك تخشانى ؟

وكانت أصابع القورباشى التى تبعث فى لحيته ترتعد ، كما إزداد إحمرارا وجنتيه اللتين امتلأتابالثقوب والحفر بسبب الجدرى ، فبدت هذه الحفر أكثر وضوحا .

ثم صاح : فكوا القيد من يدى هذا الوغد ، فاستل رجلان سيفيهما من غمديهما ووقفا على يمينه ويساره ، ثم أمر الجلاد قائلا : استل سيفك ودقق النظر .

وأشهر الرجال الثلاثة سيوفهم والتفوا حول أحمد بلوان ، ومزقوا الحبل بمدية فسقط على الأرض ، فرفع أحمد بلوان يديه اللتين كانتا مغلولتين إلى أعلى وهز رأسه ، ثم أمر قائلا : أحضروا لى قطعة خشب كبيرة وكأساً صغيراً ، فأحضروا قطعة الخشب والكأس . فأشار أحمد بلوان أين يضعونهما ، كما نادى الطبيب قائلا : أيها الطبيب قف هنا وامسك الكأس .

فنزل الطبيب من جوار القورباشى ، وحمل الكأس ووقف فى المكان الذى أشار إليه ، ثم ركع أحمد بلوان ، وأغلق أصابع يده اليسرى الأربعة ، ووضع إبهامه على سطح قطعة الخشب .

وعم الصمت حتى أصبح فى الإمكان سماع أى صوت صادر عن تحليق فراشة ، وفجأة إنهار أحد المتفرجين ، وامتقع لونه وأغمض عينيه ، وكأنه لم يسمع من قبل زئير الأسد أو صليل السيف .

وحينما فتح عينيه كان أحمد بلوان قد وقف فى استقامة رافعا يده المبتورة الأصبع إلى أعلى، والطبيب يضغط على موضع قطع إبهامه من أجل إراقة الدماء فى الكأس ، ووجه أحمد بلوان يتلألأ من غزارة قطرات عرقه ، ويتنفس فى صعوبة .

وحينما نظر الطبيب بطرفة عينه وجد الكأس مملوءاً إلى حافته ، فأدار يده فى سرعة ، بينما كان أحمد بلوان فى نفس اللحظة يختلس النظر إلى أصبعه حتى توقف تدفق الدم ،ثم سأل : هل الحجر موجود ؟

فرد القورباشى فى إثره وكأنه رجع صدى ، هل الحجر موجود ؟ ثم أضاف دون أن يدرك ما يقوله : أحضروه هاهنا !!

وحتى هذه اللحظة لم يكن القورباشى يشك فى أن أحمد بلوان يريد أن يخدعه وينجو من الموت ، ولكنه كان واثقا ثقة عمياء فى أن هذا الرجل الغامض سيستطيع أن يعيد البصر إلى عينه العوراء ، ورق قلب القورباشى له، فأصبحت أحاسيسه خليطا بين الشفقة معه والخوف منه ، إذ بدأ ينظر إليه بنظرات أقل شراسة ، وهو يزاول عمله ، ويصدر أوامره وكأنه القورباشى .

وكان الشاب القوى البنيان قد أحضر الحجر منحوتا على شكل آلة حرث الأرض وشرع الطبيب يمسح فى الحجر ، كما كان يراقب عن كثب وصفة أحمد بلوان

المطبوخة فى الوعاء . وكان ينتقل هنا وهناك فى سرعة غير عادية افقدته وقاره وهيبته . ذلك لأنه لم يساوره الشك فى أحمد بلوان على الإطلاق . بل كان يظن أنه سيكشف له السر العظيم الذى يعد خدمة جليلة لمرافقى القورباشى

وحمل الطبيب الحجر . وذهب به إلى حيث تهب الرياح لتجففه بناء على طلب أحمد بلوان . وفى نفس الوقت جال بخاطره قول أحمد بلوان انه الشخص الذى يعرف كيف يعيد البصر لكل أعور . ثم يصبح هو نفسه بعد ذلك أعور . ولكن تدارك نفسه وخشى أن تتعثر قدمه فى شىء . فيقع الحجر من يده . ثم سرعان ما غلبه تفكير آخر . فقال فى نفسه: «إننى سوف أشفى الأغنياء . وأصبح غنيا . وبتلك النقود سوف أجعل أى فقير يوافق أن يصبح أعور بدلا منى» . ثم وضع الطبيب النشوان الحجر فى مهب الرياح . وواصل النظر إلى أحمد بلوان .

فقال أحمد بلوان : إننى أنجز كل الأعمال بنفسى . والطبيب أيضاً قد أنجز أصعب مهمة تليق بشخصه . ثم شايعه أحمد بلوان نظرة . ووضع يده الجريحة على كتفه بعد أن أوقف نزفها . وعاد ببطىء إلى جانب القورباشى وباحترام قال له : سيدى هل تأذن لى أن أستريح حتى يجف الحجر ؟ فقال القورباشى فى عجلة : استرح . استرح . فجلس أحمد بلوان القرفصاء وسط ثلاثة رجال مطأطئاً رأسه . وقد أنهكه التعب . ثم وضع يده ذات العاهة على ركبته . وغلبه التفكير . فتعجب مما له . وأخذ يفكر فى أمر نفسه أهو ذلك القروى وقد جلس يستريح قليلا . ثم يعود لمزاولة العمل فى الحقل مرة أخرى ؟ أم هو ذلك الرجل المحكوم عليه بالإعدام . وقد جلس يستريح انتظارا لتنفيذ حكم الإعدام الصادر ضده من القورباشى !!

وكان القورباشى فى تلك الأثناء ينظر إلى هذا الرجل الشارد.إذ كيف يستمتع بالراحة رغم كل ألوان العذاب التى لقيها ؟ ولكنه لم يستطع أن يدرك اى عذاب هذا الذى يعتصر قلب أحمد بلوان . وهو مستغرق فى لحظات الراحة هذه !! .

وفكر القورباشى وقال فى نفسه : «لو يوافق هذا الشيطان على أن يكون من رجالى . لكان وحده بعشرة رجال . ولكن غضبه المختلط بالاعجاب فى نفس الآن كان يعتصر قلبه.لأنه استطاع أن يتغلب على الحجر بكسره . ولكنه لم يستطع التغلب على بلوان .

وبينما كان القورباشى يمشط لحيته بيده . ومستغرقا فى التفكير . مال أحد أعوانه على كتفه . وهمس فى أذنه قائلا : سيدى إن الوقت يمضى !! . فارتجف القورباشى فجأة . وقال بصوت مخيف : هيا . متى تبدأ عملك ؟

وفى تلك الأثناء كان أحمد بلوان يرفع رأسه . فأجاب فى هدوء : الآن ياسيدى . إننى أعتقد أن الحجر قد جف . فاصدر أمراً بإحضاره .

فنفذ الشاب الضخم البنيان الأمر فى عجلة . فأخذه أحمد بلوان منه . وباحتراس وضعه بجوار الثلاثة أحجار الاخرى . وقال : سيدى قبل أن أبدأ علاجى . أود شيئا ... فقاطعه القورباشى قائلا : أتود أن أتركك تعيش ؟ ثم أضاف ونيران غضبه تتطاير شرراً من عينه المبصرة : كلا أيها الرجل . لا يمكن خداعنا بهذا العمل ! لا يمكن هذا . فدم الأفندى رهينة فى رقبتك .

فقال أحمد بلوان فى أسى وكأنه يؤيد حق القورباشى ! سيدى الحق معكم ما دام الأفندى ساعدكم الأيمن كما تقولون ؟ .

قال القورباشى فى وقار وعظمة : لقد كان جنديا شجاعا ! فأقر أحمد بلوان فى صدق : لقد سمعت هذا . بل سمعت أكثر من من هذا.أنه عندما طردوا الحاكم الأجنبى من قصره الابيض الذى كان كان يقع على ساحل البحر . رفض الأفندى أن يعود إلى وطنه .

فهز القورباشى رأسه . وانتبه إليه . فواصل أحمد بلوان حديثه بنفس الجدية والاستقامة حيث قال : ثم ماذا حدث بعد ذلك . هل حرر الأفندى وطنه ؟ لا بل بقى غريبا فى بلدتنا ! وماذا كان يفعل فى بلدتنا ؟ سيدى !! لا تتعب نفسك بالاجابة على . فسأتولى الاجابة بنفسى . إن الأفندى رفيقكم شن الهجوم علينا ! إن رفيقكم أحرق قرانا ! إن رفيقكم قتل الناس وسلب ممتلكاتهم !

ثم نظر أحمد بلوان إلى القورباشى فى حدة وجرأة . وصاح قائلا : من أجل هذا أنا قتلته ! فصاح القورباشى فى عصبية شديدة . ويده تبحث عن مقبض الخنجر : كلب . جبان !! فصاح الطبيب بصوت عال من ناحية اليسار : العلاج ! لقد نسيتم العلاج ! ثم مد ذلك الرجل المسن يده القصيرة الصفراء . وهمس من ناحية اليمين بصوت خافت : سيدى لا تنخدع ! فهذا النذل الخسيس يفكر تفكير المحتضر !!

فى ذلك الحين كان القورباشى يتنهد ويزمجر . ثم قال موجها حديثه إلى الطبيب : أصبت فيما تقول ! ولكنكم تتركون هذا الكلب يحمى نفسه بمدية أثناء مزاولة لعبته هذه . ثم وجه قوله إلى أحمد بلوان قائلا : أتسمعنى أيها الخسيس أم لا ؟

فأجاب أحمد بلوان بمزيد من الاحترام : نعم إننى أسمعك ياسيدى . ولكن أن تأذن لى فكم أود أن أعرف هل أنتم الآن فى ثورة غضبكم ؟ فلم يستطع القورباشى الصمت عن الاجابة على هذا السؤال ، وقال : لم تريد أن تعرف هذا ؟

فرد أحمد بلوان : لأنى كم أخشى ثورة غضبك على هذا النحو بقدر ما أخشى هدوءك .

فلم يستطع القورباشى للمرة الثانية أن يتمالك نفسه وأجاب متعجبا : إننى لا أفهمك !!

فرد أحمد بلوان بل أنت تفهم ، إننى أريد أن أشفيك ، أليس كذلك ؟ إذن فينبغى أن أكون خائفا ، لأنه حينما يعود البصر إلى عينك الكفيفة ، فسوف أكافأ بالعفو والصفح عن قتلى !!

فأجاب القورباشى فى عصبية : إننى أرى أنك تتمادى فى وقاحتك . فرد أحمد : صبراً سيدى ، إننى حتى الآن لم أكمل حديثى . فرد القورباشى تحدث . ولكن باختصار.!!

فأجاب : حسناً جداً ياسيدى . هذه يدى ذات العاهة ، وهذه أيضا عينى ، حينما أعطيك نور عينى هذه .

فقاطع القورباشى كلام أحمد بلوان قائلا : هذا معروف ، وماذا بعد ؟

فرد أحمد بلوان : وبعد ياسيدى... إننى لا أريد أن تبقينى حياً ، فما قيمة الحياة بالنسبة لى أنا الفقير ، حينما أصبح أعور . وأشحذ فى السوق طالباً الصدقة ؟

فقال القورباشى : كلامك كله حكمة . وفجأة قهقه قهقهة قصيرة، ثم قال : ولكن ما الذى جعلك تعتقد أننى أريد أن أبقيك حياً .

وكان أحمد بلوان على وضعه جالساً القرفصاء ، فنهض ووقف مستقيما.ونظر إلى القورباشى نظرة كلها تهكم ، وقال : إننى أشك ياسيدى !!

فاعترض القورباشى قائلا وهو يطمئنه طمأنينة تخفى وراءها شرا : كلا ، لاتشك انك تعلم اننى سأقتلك بمجرد أن تنتهى من علاجى... ولهذا السبب سوف لا تتعجل فى علاجى . أليس كذلك ؟

فرد أحمد بلوان : كلا ياسيدى! ليس الأمر كذلك ، إننى مستعد كى أبدأ العلاج ولكن أولا يجب أن أطمئن .

ـ تطمئن إلى أى شيء ؟
ـ إلى أنك ستقتلنى .
ـ هذا آخر ما قلته لك .
ـ سمعت هذا يا سيدى .
ـ إذن فماذا تريد ؟
ـ إننى أريد أن أقول بضع كلمات لفتيانك .
ـ لماذا ؟
ـ بل قل أنت ، لم تبدو عصبيا ؟
ـ أنا لست عصبيا .
ـ بل يجب أن تكون أكثر عصبية !!

ـ وماذا سيحدث لو لم أسمح لك بأن تقول هزيانك وهراءك لفتيانى ؟
فضحك أحمد بلوان فى سخرية ، وأجاب على سؤاله فى جرأة : هذا يعنى أنك تجهل هذيانى وهرائى .

فاغتاظ القورباشى، وأدار رأسه إلى حراسه، وزمجر وكأنه يسأل نفسه قائلا: ماذا يحدث لو أننى أمرتهم بأن يطيحوا رأسك أيها الأحمق بسيوفهم، فقال أحمد بلوان : وكيف تبقى عينك عوراء ؟

فأطاح القورباشى بالوسائد فى وجهه، وصاح قائلا : قل أيها الشيطان الخبيث عبثك وهراءك !

فقال أحمد بلوان : حسناً ياسيدى ، وفى سرعة هائلة اعتراه الهدوء والسكينة بدلا من الجرأة والوقاحة ، ثم طأطأ رأسه فى ذلة أمام القورباشى الذى صاح قائلا : لست أنا ، لا تقل لى ! ثم أشار بيده إلى فتيانه الذين يترقبون فى حرص وولع ، ماذا سيروى عليهم الآن .

أدار أحمد بلوان وجهه صوب الفتيان الذين كانوا قد جلسوا مصطفين على الأرض ينظرون إلى وجهه، وقد إ نعكست عليه أشعة الشمس المنحدرة نحو الغروب .

ثم صاح بصوت عال قائلا: أيها الناس ! إنكم تنظرون إلىّ وتعتقدون أى أحمق هذا ذلك الذى قطع أصبعه عن يده ، ثم يريد أن يعطى نور عينه إلى ألد أعدائه أى القورباشى ، أيها الناس ! لا تتعجبوا من هذا الأمر ، فأنا أعطى أصبعى وعينى فقط ، ولكنكم تمزقون أنفسكم وتعطونها لعدوكم ، فأنتم تطلقون الرصاص على أنفسكم لأنه يقتل أباءكم وإخوانكم ويشعل النيران فى قراكم ،فلا تعتقدوا أننى

فقدت عقلى من شدة الخوف . فامضوا واسلخوا لحم بدنى عن عظامه ، امضوا واصحنوا عظامى بالهون ، فأنا مستعد لأى شىء ، لكى تدركوا حقيقة كلامى أيها الناس . لم يعد يبقى على موتى سوى ربع ساعة .. ولكننى قبل أن أموت أريد أن أعرف من أجل من تخبئون الأسلحة فى باطن الجبال ، وترسلون بإخوانكم كرجال سافكين للدماء ؟ إنكم فقراء مساكين ! فقولوا لى من أجل من قد بدلتم آلة الحرث بتلك البنادق الآثمة ؟

فصاح القورباشى غاضبا : اسكت ، اسكت أيها الخسيس ! لكن أحمد بلوان صاح بصوت عال قائلا فى شجاعة : عندما تقضى حكومتنا على البسمجية ، يصبح هذا الأمر مقلقاً ومخيفا للأغنياء الأقوياء والسادة العظام . ولكن أنتم أيها الفقراء المساكين مم تخافون ؟

فاشتاط القورباشى غضبا،وأشار إلى الجلاد بأن يوجه إليه ضربة عنيفة ، فنفذ الجلاد بلا وعى أمره . ووقع أحمد بلوان مترنحاً على إثر تلك الضربة،ولكن سرعان ما تمالك نفسه واستطاع الوقوف .

وفى تلك الأثناء أبعد القورباشى بيد مرتجفة أيدى الطبيب والرجل المسن الضعيف من على كتفه . ثم اتجه إلى حافة المنصة ، وصاح فى وجه أحمد بلوان قائلا : إننى تحملت مهاتراتك فترة طويلة . والآن استمع إلى كلامى أيها الرجل توقف عن سخريتك هذه . فقد كنت على وشك أن أقتلك بسكين كبيرة كالحربة الضخمة . وليس بضربة سيف من الجلاد ، ولكن قبل أن أقتلك سوف أصدر أمراً للطبيب بأن يسلخ جلدك بحذر ، وسوف ينفذون الأمر على أنغام تلك المطرقة . فلتسمع كيف تصدر المطرقة أنغاماً كلما طرقتها . بعد ذلك سيضرب الجلاد حلقك النجس بتلك السكين التى تراها ، فاوقف عواءك ، وأنجز عملك !!

فحياه أحمد بلوان مقدما مفروض الطاعة والولاء ، وأفهمه بالإشارة أن يعطوا له الكأس ، ففهم إشارته ، ومسح أحمد بلوان الحجر بمحتويات الكأس ، ثم أتى بحركات مبهمة أخرى ،اجتهدالقورباشى فى أن يفهمها، ولكنه لم يفلح فى ذلك مما أثاره ، وأمره أن يوضح ما يريده بالكلمات .

فأمر أحمد بلوان أن يحضروا حطبا ، ويطووا أطرافه ، ويجعلوه ربطة ، وبعد ذلك استدعى الطبيب وصاحب البيت على مقربة منه ، وقال : ياصاحب البيت إحمل ربطة الحطب ، وأنت أيها الطبيب احمل الحجر .

وحينما انتهيا من تأدية ما كلفهما به . أصدر أحمد بلوان أمراً إلى الرجل المسن بأن يشعل ربطة الحطب . ويحملها ناحية وجه القورباشى . فتشكك الرجل المسن وقال : هذا عمل غير ممكن . لأنه سيصيب عين سيدى السليمة .

فقال أحمد بلوان له : أمض ، ولتُغطى عينه السليمة بمنديل ! وحينما انتهى من الأمر . اختار الطبيب والرجل المسن الكثير الحركة ليركعا أمام القورباشى . ثم قال أحمد بلوان : الان اشعلا الشمع . وانتبها حتى لا ينطفىء .

فأشعلا الشمع ، فنظر أحمد بلوان إلى الشعلة ، وخاطب الطبيب قائلا : أيها الطبيب أحمل سن الحجر المشحوذ باستقامة إلى طرف العين الكفيفة . وحركه هكذا . وأشار أحمد بلوان بيديه الى ما يجب أن يفعله . فرفع الطبيب الحجر عدة مرات . وأمسكه . وبدأ يحركه .

فصاح أحمد بلوان فيه : أفضل من هذا . أفضل من هذا . إفعل كأم تهز طفلها برقة .

ومهما حاول الطبيب . كان أحمد بلوان يصيح فيه : أيها الطبيب ليس هكذا . ليس هكذا . أعد . وفى نفس الوقت يشعل الرجل المسن ربطة الحطب الرابعة . وكاد دخانها يخنق القورباشى المتعطش للشفاء .

وفى النهاية نفذ صبر القورباشى . وأمر الطبيب الذى كان قد ضاق ذرعا قائلا : أيها الطبيب أعطه الحجر وانصرف . وليهزه بنفسه كما ينبغى !!

وانحنى الرجل المسن مرتين على كتف القورباشى . وهمس فى أذنه بشىء لعله كان يحذره من مغبة هذا العمل . فاذا بالقورباشى يسبه ويصيح فى عصبية قائلا : هل أنا أخشى ابن الحرام هذا ؟ إذن فلم وقف الجلادوالحارسان بسيوفهم ! انصرف هاهم يقتربون ويراقبونه أيضا .

فحملوا أحمد بلوان إلى مقدمة المنصة . ولازمه الحارسان والجلاد . فركع أحمد بلوان أمام القورباشى وقال : دع مستشارك العاقل يعصب عينى، حتى لا تنتابه الشكوك والمخاوف . فصاح القورباشى الذى كان يسعل من كثرة الدخان قائلا : أعصب عينيه ! فلما عصبت عيناه أمر قائلا : الآن أعطونى الحجر .

فمد الطبيب يده وأعطاه الحجر . وتراجع إلى الوراء فى خجل . فقال أحمد بلوان : أيها الطبيب راقب الشمع . لأن سن الحجر يكون مستقرأ علىالدوام أمام العين الكفيفة . سيدى سأبدأ .

وكلما هز أحمد بلوان الحجر ببطء ، أزدادت شعلة الحطب توهجا بسبب هذه الحركة ، وكلما كان الدخان يتصاعد بكثافة ، كانا رأسا أحمد بلوان والقورباشى يقتربان من بعضهما البعض ، وكانت شعلة الشمع ترتعد خلف المعالج والطبيب ، وكان جميع الحاضرين ينظرون من خلفه إلى هذه الشعلة ، وفى نفس الوقت يراقبون أحمد بلوان ، ومع هذا فإن حركات يديه لم تكن ترى ، لأن سن الحجر المشحوذ كان دائما موجهاً إلى العين، وحينما انحرف سن الحجر المشحوذ قليلا ، خشى الطبيب هذه المرة تحذيرالقورباشى ،حتى لا يثور عليه كما حدث فى المرة السابقة ، أضف إلى ذلك أن المعالج صاح فيه قائلا : انتبه إلى الشمع !! وفى ذات اللحظة التى شد انتباه القورباشى والجميع لما يحدث ، إذا به يفقأ عينه السليمة بالسن المدبب للحجر .

وفى اللحظة التالية شقت ضربات سيف الجلاد الهواء ، لتصيب أحمد بلوان ، فهوى جسده على جثمان القورباشى .

وقبل أن ينظف الجلاد سيفه من دمه ، إذا بقذيفة من أحد الفتيان ترديه قتيلا . وعلى إثر ذلك دوت طلقات الرصاص ، فقد بدأ رجال القورباشى الذى كان قد قتل يتقاتلون ، واستمر هذا القتال الشرس حتى منتصف الليل ، واشتعلت النيران فى منزل الرجل المسن الشبيه بالخفاش حتى منتصف الليل ، وتصاعدت ألسنة الحريق إلى السماء ، وشاع فى القرى المجاورة خبر موت القورباشى ، الذى كان مشهوراً عند كثير من الناس بلقب (الفهد الأعور)

تمت

تحليل القصة

هذه القصة بمفهوم أحداثها المباشر تحكى مأساة أحمد بلوان ذلك الفلاح المسكين ، الذى كان يعيش في قريته لا حول له ولا قوة ، ولكن الاضطرابات كانت تعصف ببلاده بسبب المقاومة المناوئة للسلطات الروسية .

ولتعاسة حظ أحمد بلوان ـ كما يقول المؤلف ـ فإن جنود النجمة الحمراء قد نجحوا فى إصابة رفيق القورباشى الأعور زعيم هذه العصابات برصاصة ، ففروا هاربين إلى المزارع والقرى .

ولما كانت السلطات الروسية تكن العداء للاقطاعيين ، فلم يستطع القورباشى أن يلجأ إليهم بصديقه الجريح ،كى يخفيه لديهم بعيداً عن عيون السلطات الروسية ، لذا نراه يبحث عن مكان آخر آمن لا يثير حوله الشكوك ، ووجد هذا المكان لدى هذا القروى الفقير أحمد بلوان ، فترك صديقه لديه ، وطلب منه أن يضمد جراحه ويخفيه بعيدا عن جنود السلطة وعن جواسيسها ، حتى يرسل فى طلبه بعد أن يؤمن له مخبأ أكثر طمأنينة .

لكن أحمد بلوان بعد أن ضمد جراح صديق القورباشى ، خشى بطش السلطات الروسية وفتكها به ، فقام بقتله والتخلص منه بدلا من تأمين سلامته والحفاظ على حياته .

وبعد مضى سبعة وثلاثين يوماً أرسل القورباشى الأعور أحد رفاقه من الاقطاعيين إلى القروى أحمد بلوان كى يطمئن على رفيقه الجريح ، ويعود به إلى حيث يوجد القورباشى ، فإذا به يجده قد قُتل ، فألقى القبض على أحمد بلوان ، وعاد به إلى القورباشى الذى اشتاط غضبا وصمم على التنكيل به وقتله .

ثم يصور الكاتب بعد ذلك أن بطل القصة أحمد بلوان استخدم ذكاءه فى خداع القورباشى الأعور مستغلا نقطة ضعفه وهى فقدانه إحدى عينيه ، فأعطاه الأمل فى إعادة البصر إليها بوصفة يعرفها ، على أن يفك قيده ، كى يقوم بالخدمة على خير وجه !!

ولما كانت حاسة البصر من أغلى الحواس بالنسبة للإنسان ، فقد استغلها الكاتب لتحريك الأحداث ، فوجدنا القورباشى الأعور قد خضع مع جبروته وبأسه إلى أحمد

بلوان . الذى استغل حيلة ذكية وقام بقتل القورباشى الأعور بفقأ عينه الأخرى .. ثم خر هو صريعا بضربة سيف قاضية من الجلاد . ولهول ما حدث دبت الفرقة بين رفقاء القورباشى فصاروا يتقاتلون .

وهكذا أنهى الكاتب قصته بمقتل القورباشى عدو السلطة السوڤيتية بعد أن راح ضحيته الفلاح المسكين أحمد بلوان .

لكن بعد عرضنا لأحداث القصة يتضح لنا أنها تصور نضال المقاومة الشعبية التى قامت فى تركستان منذ عام ١٩١٨ حتى عام ١٩٣٢ م التى سبق أن أشرت إليها من خلال تناول شخصية أحد زعماء الكتائب الفدائية .

كما أن كاتبها السيد عبد الله القهار هو أحد كتاب الثلاثينات من هذا القرن الذين دفعت بهم السلطات الروسية للكتابة ضد المجاهدين وأعمالهم الفدائية . فعالج أحداث القصة معالجة تهدف إلى تشويه أهداف الحركة الفدائية الوطنية، وتشكيك الرأى العام فى قداسة اهدافها . وكسب طبقة الفلاحين وهم أكثر من نصف الطبقة العاملة التى يقوم عليها المذهب الشيوعى ، وذلك من خلال تناوله لشخصية بطل قصته أحمد بلوان ذلك الرجل القروى الذى اتخذه رمزاً لهذه الطبقة . ويوضح هذا تحليلنا للقصة .

أولا : شوه الكاتب صورة القورباشى الأعور بتعريفه فى القصة على أنه رئيس أشرار ضد إنقلابى . (باسماچ ها) أى زعيم قطاع الطرق المناوئين للسلطة الذى يطلق عليهم البسماجية . وطبيعى أن السلطات الروسية ستصف أعمالهم الفدائية بأنها كأعمال قطاع الطرق واللصوص تشويها لكفاحهم المقدس ، وبطولاتهم التى تهدد الكيان السوڤيتى فى الجمهوريات الإسلامية من الاتحاد السوڤييتى .

كما أن وصف القورباشى بأنه أعور يفيد بأن الكاتب قد قصد شخصية حقيقية هى شخصية المجاهد شير محمد بك زعيم الكتيبة الفدائيين بفرغانه . حيث كان العور سمة مميزة انفرد بها بين سائر زعماء الكتائب .

ثانيا : سخر الكاتب بطل قصته الفلاح أحمد بلوان فى تحقيق كل ما تهدف إليه القصة ،فراح يشكك الرأى العام للشعب التركستانى فى قداسة حركة المجاهدين الوطنية، من خلال تصويره لأعمالهم الفدائية على أنها أعمال تخريبية، تجلب من ورائها الدمار والهلاك للناس والوطن . فجاء ذلك فى أكثر من موقف فى القصة فى هيئة نصائح يوجهها الفلاح أحمد بلوان لأبناء وطنه رجال القورباشى حتى يفيقوا

من غفلتهم وانخداعهم بمبادىء حركته ، نذكر منها هذا الموقف إذ يقول فيه:«ثم صاح بصوت عالٍ قائلا : أيها الناس ! إنكم تنظرون إلىّ وتعتقدون أى أحمق هذا ذلك الذى يقطع أصبعه عن يده ،ثم يريد أن يعطى نور عينه إلى ألد أعدائه أى (القورباشى) . أيها الناس ! لا تتعجبوا من هذا الأمر ، فأنا أعطى أصبعى وعينى فقط ، ولكنكم تمزقون أنفسكم وتعطونها لعدوكم ، فأنتم تطلقون الرصاص على أنفسكم ، لأنه يقتل أباءكم وإخوانكم ويشعل النيران فى قراكم (١)

كما هدف الكاتب إلى تشكيك الرأى العام فى الهدف الوطنى لحركة المقاومة الفدائية بوسيلة أخرى، وهى رسم صور كاريكاتيرية قبيحة ومنفرة للقورباشى الأعور ورفقائه، ووصفهم بالجهل والفشل وعدم الإخلاص لوطنهم ، بهدف تنفير القارىء منهم ، وعدم تعاطفه معهم ، وإقناعه فى النهاية بأن هذه الحركة ليست وطنية بل إنها حركة تمرد فوضوية مصيرها الفشل ، وقد صور الكاتب فشلها بقتل القورباشى الأعور على يد الفلاح أحد بلوان الذى ضحى بروحه من أجل وطنه ، ثم انشقاق رجال القورباشى على أنفسهم فصاروا يتقاتلون .

ولنتناول كل شخصية من هذه الشخصيات على ضوء ما وردت فى القصة ، ولنتبين مدى صدق ما نقول :

استخدام الكاتب العنصر النفسى فى التأثير على القارىء فرسم أصحاب الحركة خاصة من أبناء وطنه فى صورة كاريكاتيرية قبيحة منفرة ، تبعث على الاشمئزاز والنفور منهم ، فنجده يصف القورباشى الأعور بأنه كان يلبس عصابة على عينه الكفيفة ، أما عينه المبصرة فتتقد شراً وشراسة وكأنها عين ذئب ، ووجهه ممتلىء بالثقوب والنتوءات بسبب الجدرى الذى أصابه ، وكان ذات لحية مجعدة ، غليظ القلب عديم الرحمة والشفقة ، لا يفكر فى العفو عن الفلاح المسكين أحمد بلوان الذى ظلمته الأقدار ، وضحى بعينه وأصبعه فى سبيل استرجاع البصر لعينه الكفيفة ، بل هو مصمم على التنكيل به وقتله .

وعلى الرغم من أنه كان يمثل الطبقة المستنيرة لأبناء الشعب، إلا أنه صاحب عقلية جوفاء متخلفة تعتقد فى الخرافات والسحر ، فدفع حياته ثمنا لتخلفه ، حيث استطاع بطل القصة أحمد بلوان الذى يعد رمزا لعامة الشعب أن يخدعه بحيلة زكية ، عبارة عن وصفة يقوم بإعدادها من أجله فتعيد البصر إلى عينه الكفيفة ، ثم إنقض عليه وقتله ، وقدم بذلك إلى بلاده خدمة جليلة .

---

(١) انظر القصة ص : ٥٩ .

وهذا يوضح لنا مغزى الكاتب من العنوان الذى اختاره لقصته وهو (بصيرة العميان) فالفلاح أحمد بلوان بطل القصة ما هو إلا رمز لطبقة الفلاحين البسطاء الذين يتخبطون فى جهالتهم ، لذا فهم أشبة بالعميان ، ومع هذا فقد استطاع أحمد بلوان بذكائه وبصيرته أن يقضى على القورباشى الأعور عدو الشعب .

أما الشخصية الثانية من أبناء تركستان فهو صاحب البيت فصوره لنا مسناً ، قصير القامة ، شاحب اللون ، كثير الحركة والاهتزاز أشبه بالخفاش . وهو فى القصة ، رمز لطبقة الملاك الأغنياء من الشعب التركستانى التى تساند القورباشى .

كما أن تشبيهه بالخفاش له دلالته فى القصة وهى أن هؤلاء الملاك الذين يساندون القورباشى فى حركته لا يستطيعون العمل فى وضح النهار ، بل أنهم يتخفون أمام حقائق الحياة ونورها ، ثم يظهرون مع ظلمة الليل والرغبة فى العودة إلى ظلام العصور السابقة ،قبل أن يبزغ فجر الثورة الشيوعية ، ويقضى على جورهم . وقدأشار الكاتب إلى أن الثورة لابد وأن تنتصر على هؤلاء الاقطاعيين وذلك فى حديثه عن الحريق الذى دمر بيت ذلك المتآمر مع القورباشى ، فهذا الحريق لم يحرق داراً بل أحرق طبقة مناوئة للثورة .

أما شخصية اسماعيل أفندى الساعد الأيمن للقورباش الذى قام بقتله بطل القصة احمد بلوان ، فقد صوره الكاتب كرجل متمرد سافك للدماء ، خائن لبلده رفض أن يعود إليها ، ليشارك أهلها فى تحريرها من المستعمر الأجنبى ، ويبدو ذلك فيما دار على لسان أحمد بلوان للقورباش :

« ..... ماذا حدث بعد [illegible] على جبر الأفندى وحده ؟؟ ، على غريبا فى بلدتنا . وماذا كان يفعل فى بلدتنا ؟» إن الأفندى رفيقكم فى الهجوم علينا . إن رفيقكم أحرق قرانا ! إن رفيقكم قتل الناس وسلب ممتلكاتهم ! (١)

والواضح لنا من هذا الحوار أن إسماعيل أفندى هذا كان رجلا أفغانيا. ويؤكد هذا ما سبق أن ذكرته عنه حديثى عن تاريخ الشعب التركستانى من تأييد ومساندة أفغانستان للتركستانيين .

كما لا يستبعد أن يكون إسماعيل افندى اوزبكيا ممن يعيشون فى أفغانستان فالمعروف أن هناك بعض الأوزبك يقيمون فى البلاد المجاورة للاتحاد السوفييتى ، وتثبت إحصائية عام ١٩٧٠ م الخاصة بأفغانستان أنه بلغ عدد من يعيش بها من

---

(١) أنظر القصة : ص ٥٧

الأوزبك مليونا ونصف مليون (١) . فلما شهد حركة المقاومة الفدائية فى بلاده ضد الغزو الروسى ، أسرع بالإنضمام إليها .

أما الطبيب الهندى فقد صوره الكاتب فى صورة الرجل الهارب من بلاده بسبب دسائس زملائه الجهلاء ، كما أنه جاهل فى عمله ، فهو لا يعرف كيف يشفى نفسه من مرض الملاريا الذى يعتريه ، وبلغ به جهله أنه غمرته السعادة باعتقاده أن سر وصفة أحمد بلوان لإعادة البصر للقورباشى كسب علمى ، يستطيع بواسطته العودة إلى بلاده ، ليشفى الأغنياء مستغلاً عدم ضميره وضعف خلقه فى شراء نفوس الفقراء ، ويبدو ذلك فيما ورد على خلده « فقال فى نفسه : إننى سوف أشفى الاغنياء ، وأصبح غنيا ، وبتلك النقود سوف أجعل أى فقير يوافق أن يصبح أعور بدلاً منى (٢) » .

وهكذا ترتبط النوازع نحو الغنى فى المجتمع الشيوعى بطرق غير مشروعة من سرقة واختلاس وتدليس ودجل .

أما الهدف الأخير الذى سعى الكاتب إلى تحقيقه فى القصة ،فهو إثارة الطبقة العاملة ضد الملاك ، وكسبها الى جانب الحكومة السوفيتية ،التى تعد هذه الطبقة ركيزة نجاح المذهب الشيوعى بالبلاد ، ويبدو ذلك فى حديث بطل القصة أحمد بلوان إلى زملائه الفلاحين رجال القورباشى كى ينفضوا عنه فيقول :

« ولكننى قبل أن أموت أريد أن أعرف من أجل من تخبئون الأسلحة فى باطن الجبال ، وترسلون بإخوانكم كرجال سافكين للدماء ؟ إنكم فقراء مساكين ! فقولوا لى من أجل من قد بدلتم آلة الحرث بتلك البنادق الآثمة ؟

ثم يواصل حديثه فيقول : « عندما تقضى حكومتنا على البسماجية ، يصبح هذا الأمر مقلقاً ومخيفاً للأغنياء والأقوياء والسادة العظام ، ولكن أنتم أيها الفقراء المساكين مم تخافون ؟ (٣) .

غير أننا بعد هذا التحليل نستطيع أن نصل إلى النتائج التالية :
أولا : تأييد الشعب التركستانى بمختلف طبقاته لحركة المقاومة الفدائية

---

(١) Lexicon Universal Encyclopedia, V: 19, P: 499, New york, 1983.

(٢) . أنظر القصة : ص ٥٦

(٣) أنظر القصة : ص ٦٠

ومشاركته فيها ، هذا بالإضافة إلى مساندة الأجانب المقيمين بالبلاد من هنود وأفغان لها .

ثانيا : تأكيد ما أثبته التاريخ لطبيعة عمل الكتائب الفدائية ، وهى أنها كانت تقوم ليلا بسبب عدم توازن القوى بينها وبين القوات الروسية بالسطو على مخازن أسلحتها وذخيرتها ، تلك المخازن التى كانت مزودة بأحدث أسلحة العصر ، والاستيلاء عليها وتخبئتها فى باطن الجبال ،التى اتسمت بها طبيعة تضاريس بلادهم ، ومحاربة القوات القوات الروسية بها ، مما كان يهدد أمن الحكومة السوفيتية، ويجعل مهمة القضاء عليهم من الأمور الصعبة ، ويبدو هذا فيما ورد من قبل على لسان أحمد بلوان لرجال القورباشى من أبناء وطنه فى قوله: « من أجل من تخبئون الأسلحة فى باطن الجبال » . وأيضا فيما دار على لسان الكاتب عن القورباشى إذ يقول : « فتذكر على الفور أنه فى وقت الغروب ،يجب أن يتوجه فرسانه للإغارة على القرية المجاورة ، من أجل تصفية الحساب مع الأعداء ،حيث لم يكن هذا الحساب قد انتهى بعد (١) »

ثالثا : على الرغم من أن كاتب هذه القصة من كتاب السلطات الروسية الذين دفعت بهم للكتابة من أجل تشويه العمل الفدائى ، إلا أن عصبيته لبنى وطنه قد غلبت عليه فى بعض المواقف من القصة وهى :

١ ـ ذكر فى حديث القورباشى الذى ورد فى الفقرة السابقة أن وقت الغروب ويجب أن يتوجه فرسانه إلى القرية المجاورة لتصفية حسابه مع الأعداء فكلمة الأعداء هنا تعنى القوات الروسية ، وكان الأجدر به أن يذكر عبارة جنود النجمة الحمراء كما ذكرها أكثر من مرة فى القصة .

٢ ـ على الرغم من أن محور القصة قد دار حول حيلة بطلها أحمد بلوان الذكية ونجاحها فى القضاء على القورباشى عدو السلطة ، وما يعنيه هذا من تحالف الطبقات الكادحة مع الثورة الشيوعية ، إلا أن الكاتب نسى نفسه فتركها على سجيتها ، حيث تحدث عن الخوف الذى بثته الثورة الشيوعية فى نفوس المواطنين ، فقد ذكر أن أحمد بلوان بعد أن ضمد جراح إسماعيل أفندى رفيق القورباشى ، قتله لا من أجل الإنتقام منه كما فعل بالقورباشى ، ولكنه خشية ألا يعود القورباشى ليأخذه ، فتفتك به القوات الروسية ، ويبدو ذلك فيما ورد على لسان الكاتب فيقول : « لم ينتظر أحمد بلوان شفاء الأفندى أو موته ، لذا سارع

---

(١) أنظر القصة ... : ص ٥٠ ـ ٥١

بتوفير الراحة الأبدية له بأن ضربه ضربة فأس قويةأودت بحياته ، وذلك خوفاً من ألا يعود القورباشى لاستعادة رفيقه (١) » .

وهذا يوضح لنا ما كان يسود البلاد فى ذلك الوقت من تعسف وإرهاب بحيث أنه قتله خوفا من بطش السلطات به ، وليس للانتقام من الأفندى كما فعل بالقورباشى ، وتقديم خدمة جليلة لسلطات بلاده

٢ ـ إن ما ورد على لسان الكاتب « وشاع فى القرى المجاورة خبر موت القورباشى القاسى الذى كان مشهورا عند كثير من الناس بلقب الفهد الأعور (٢) » ما هو إلا إعتراف صريح بإعجاب الناس به وبشجاعته ، وأن أخباره ونضاله كانا حديث الناس ومثار إعجابهم ، مما يثبت أن هذا القورباشى كان بطلا شعبيا . وليس متمردا كما تحاول القصة أن تصفه .

---

(١) أنظر القصة : ص ٥٠ .

(٢) أنظر القصة : ص ٦٢.

القصة الثانية

المقدمة : —

عنوان هذه القصة (دزد عزيز) أى اللص العزيز ، وهى تحكى أن لصا سطا ليلا على أحد منازل الفقراء ، وكانت صاحبة البيت جدة عجوز تعول أحفادها الأيتام ، كما كانت فى ذلك الوقت المتأخر مسهدة يعتصرها الفكر فى الكيفية التى توفر بها أسباب العيش لهؤلاء الأحفاد ، كما يؤرقها مستقبلهم المظلم ، ثم تدور أحداث القصة حول الحوار الذى وقع بين هذه الجدة واللص ، والذى يكشف لنا سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية السائدة فى البلاد بسبب الحروب المستمرة ، والخسائر الجسيمة التى سببتها سوء الأحوال فى البلاد .

أما مؤلف هذه القصة فهو الكاتب (غفور غلام) الحائز على جائزة لينين السوفيتية ، ولد عام ١٩٠٣ م وتوفى عام ١٩٦٧ م ، وكان هذا المؤلف قد فقد والديه فى سن الصغر ، فاضطر إلى الاشتغال ببعض الحرف المختلفة ، من أجل توفير أسباب العيش ، ثم واصل بعد ذلك تعليمه فى المدارس السوفيتية ، والتحق بالمعهد التعليمى بطشقند ، وقد ترك غفور غلام ، إنتاجا أدبياً متنوعاً فى مختلف الفنون كالقصة القصيرة والرواية والمسرحية والمقالة الهزلية وغيرها . كما أنه شاعر مشهور ، خلف مجموعات شعرية هى (أزخاور ميروم) أى عائد من الشرق ، و (بحث قلبها) أى البحث عن القلوب ألفها عام ١٩٦٤ م ، و « هنگام ملاقات باآينده » أى لقائى مع المستقبل عام ١٩٦٦ م و « نتيجه » أى النتيجة عام ١٩٦٧ م .

اللص العزيز

مضت بضع سنوات على وفاة أبى ، بعد أن فقدت أيضا أمى عام ١٩١٧ م ، فأصبحت الآن يتيم الوالدين ، وتكفلت بتربيتى جدتى والدة أمى وتدعى « راقية » وكانت زنجية اللون ، لذا كنت أناديها جدتى السوداء .

وفى كل ليلة كانت جدتى تبسط سجادة بالية فى صحن البيت ، فتمدد أجسادنا عليها ، ونسحب عليها لحافاً بال مهلهل تعتريه الثقوب ونستغرق فى النوم .

فى إحدى ليالى الخريف بينما كنا نائمين ، يغمرنا الدفء من تجاور أبداننا ، كانت جدتى تلك الإنسانة الحنونة ترقد على الحافة تمضغ تحت لسانها بعض الأعشاب ، فى تلك الليلة أستيقظت فجأة وقت الفجر على صوت جدتى تتحدث مع شخص ، ولكنها لم تكن تتحدث همساً كما كانت تفعل أثناء نومنا ، بل كان صوتها عالياً .

وعرفت من خلال ذلك الحوار الذى أيقظنى أن لصا قد جاء إلى بيتنا ، فاعتقدت قائلاً فى نفسى « لعل إنساناً جاء كى يزور بيتنا الوضيع ، إذ ربما أصبحنا من الأدميين !! . غدا سأختال أمام الأطفال ، ولابد أنهم لن يصدقونى وسيتهمونى بالكذب .

وفيما بعد حكت لى جدتى ، أن اللص كان قد جاء إلى سقف بيتنا المغطى بالقش عن طريق سقف بيت الجيران ، ونحن مستغرقون فى النوم وعطس عطسة ، وكانت جدتى فى ذلك الوقت مضجعة تتلذذ بما تلوك ومستغرقة فى التفكير ، فلفظت بما تلوكه فى تبرم ، وصاحت صوب السقف قائلة : « أيها اللص العزيز من الواضح أنك لم تأت إلى سقف بيتنا عبثاً ، فقد أردت البحث عن شىء تأكله ، ولكنك لست ماهراً ، كان يجب عليك أن تأخذ حذرك ، فتعالج نفسك من الزكام أولا . »

وكان اللص قد توقف على سطح السقف فرد قائلا : كان من الأفضل أن تنامى هذه الليلة ، حتى أستطيع أن أحصل على طعام لى

فاستيقظت فى نفس اللحظة ، واستمعت إلى كل الحوار الذى دار بينهما بعد ذلك .

قالت جدتى : عزيزى اللص كيف أستطيع النوم ، وقد انهالت الكوارث والنكبات علىَّ إن عينىَّ لا تريان النوم منذ ستة أشهر والأيام تدور بى كالسكير المترنح ، ويغلبنى الفكر فى الليل ، فلا أستطيع النوم .

ـ فسألها قائلا : ما الذى يقلقك أيتها الجدة العزيزة ، ثم طوى ذيل عباءته ، ووضعه تحت ذراعه ، ومدد جسده على سطح السقف .

ـ كيف أستطيع أن أتخلص من التفكير فى مستقبل هؤلاء الأيتام الأربعة ، وماذا سأفعل من أجلهم ؟ فأى زمان هذا ، الذى أصبحت الحياة فيه عصيبة وأصلب من الحجر ، كما أصبح الحصول على رغيف الخبز أمراً عسيراً ، وكم تعذب فيه أحفادى اليتامى .. إن لهم خالا يعمل حوذياً ، ولكن راتبه لا يوفر الكفاف لأسرته من أجل العيش ، بل لم يعد يتبقى فى بيته شىء ليبيعه ، لقد بعنا جميعا كل ما يمكن بيعه وانقضى ثمنه من أجل لقمة العيش ، لهذا فإننى لا أنام ، أفكر ماذا سيفعل الصغار حينما يبلغون أشدهم ويقومون بتوفير أسباب العيش لأنفسهم ؟ بل والأدهى من كل شىء أن أحفادى بنات ولا يوجد بينهن سوى ولد واحد .

فيابنى أيها اللص العزيز أى زمان عصيب هذا الذى يعيشون فيه . فأيد اللص حديثها قائلا : أيتها الجدة العزيزة أصبت فيما تقولين فأنا أيضا لى طفلان وزوجة وأم عجوز كيف أوفر لهم قوتهم ، فكما يقول المثل حتى الطائر يطلب الحب والماء ، من أجل هذا فلو توفر لدى رغيف من خبز الشعير ، فإننى ألقى بنفسى إلى الهلاك والى سيف على .

جدتى العزيزة « كان لعلى فارس النبى محمد سيف يبلغ طوله أربعين متراً »(١) هل تعتقدين أننى أبغى أن أكون لصاً ؟ كانوا يقولون إن الحرب ستنتهى بعد تولية كرينسكى رئيس وزراء الحكومة المؤقتة قبل الثورة ، ولكن لا تبدو لها نهاية على الإطلاق !

ـ فردت جدتى قائلة : يا بنى ابحث عن عمل آخر لك .

ـ فأجاب : أى عمل ، عمل آبائى ، أصنع الأحذية ؟ إن صناعة الأحذية تحتاج إلى خيط وصمغ وجلد مدبوغ ، وهذه الأشياء غير متوفرة . كنت أريد أن أعمل حمالاً ، ولكن الأسواق قد خلت من كل شىء حتى البالى والقديم فكيف تشترى

---

١ ـ إشارته هنا إلى أن سيف سيدنا على بن أبى طالب يبلغ طوله أربعين مترا كناية عن المبالغة ، لبيان قوة بأسه .

الأجولة لسراب ؟! وأمس الأول باع السيد (بوامت اتا) صانع الأحذية المعروف كل بضاعة دكانه ، واشترى ما يقرب من ثلاثين كيلو من الذرة ، ومن ناحية أخرى فهل أى أوزبكى أو قازاخى أو قير غيزى لديه المقدرة الان على شراء حذاء ليلبسه ؟ إن أطفالهم اليتامى مشردون هائمون على وجوههم فى المدينة ، لو تنظرين إلى أية زاوية تجدينهم جالسين يمدون أيديهم للسؤال قائلين قائلين : أعطنى كسرة خبز يا سيدى ! .

جدتى لست أنا فقط على هذه الحال ، فهذا هو مصيرى ومصير جميع الحرفيين ، فصناع السكاكين والدباغون ينبحون من أجل لقمة العيش بلا طائل .

ــ فقالت الجدة : لعنة الله على هذه الحرب ، لابد أن هذه نهاية الدنيا ، ولكن يابنى لم لم تذهب إلى الأقطاعيات ؟

ــ فأجاب اللص : رحم الله والدك يا جدتى ، إنك إنسانة طيبة ، لعلك لم تذهبى إلى منازل الاقطاعيين ؟ إن أسوار منازلهم عالية وأبوابها حديدية ،وداخل بيت كل واحد منهم كلاب ضخمة كالذئاب ، لو تحلق فراشة فى صحن الدار ينبحون مدة أسبوع ، فعلى سبيل المثال يقف أمام بيت (آديخ خواجه با) شرطى للحراسة ، إذا لم يقتل أحداً ، حتما سينفى إلى سيبريا .

ــ قالت الجدة : أنت تقول الصواب ، ولكن على الرغم من كل هذا إحترس كى لا يخدعوك .

ــ فرد اللص : أحسنت فيما تقولين ، فمنذ بضعة أيام خلت سرقت من حظيرة (عارف باى بوجند) أربع دجاجات .

ــ ردت الجدة قائلة : ألم تفضحك هذه الطيور بصياحها ؟

قال اللص : يا جدتى العزيزة ، إن لكل عمل فن ومهارة ، فحينما أذهب لسرقة الدجاج ، أصطحب معى زجاجة مملوءة بالماء ، لأملأ فمى بالماء داخل الحظيرة ، وأرشه على الدجاج ، فتعتقد أن المطر يمطر فتخفى رؤوسها تحت أجنحتها ، ثم ألقى بها واحدة واحدة داخل كيس مملوء بالحبوب . فهكذا يسرقون الدجاج ، ولم أكن أعرف أن لكل حرفة صنعة ومهارة !!

ــ ولكنى ياجدتى وقعت فى الفخ رغم كل هذا ، وأجبرت على أن أسلم كل الدجاج إلى « رحمان خواجه » زعيم العصابة .

ـ فليعوض الله عليه ، والآن يا بنى أنصت إلى ، إن نور الصباح كاد أن يشرق ، فاذهب إلى شجرة التوت التى توجد هناك ، إذ لدينا الموقد ، ولكن ليس لدينا الحطب لتوقده ، فمادام جذع شجرة الجوز موجوداً ، فاحمل الفأس ، وكسره إلى قطع ، واشعل الموقد ، فأنا أيضا سأعد الشاى ، أمس أحضر خال هؤلاء الأطفال اليتامى رغيفين من الخبز ، فأكلناهما سوياً

ـ قال اللص جدتى العزيزة : ما أجمل حديثك ، سأكسر لك قطع الخشب ، ولكننى لن أشرب الشاى ، لأنك ستعرفيننى لو أشرق نور الصباح ، فعلى الرغم من أننى أسرق إلا أن نفسى تأبى أن أتناول طعاماً مع مثل هذه النخوة التى أبديتنها .

ماذا تقول يابنى ، كيف تسمح لنفسك أن تنصرف من بيتنا الفقير دون أن تشرب الشاى ؟ احمل شيئاً معك ، تمهل ماذا أعطيك ؟ يا إلهى تذكرت أن لى قدراً زنة ثمانية كيلوات ، كنا نطهى فيه عندما كانت أسرتنا كبيرة الحجم ، ولكن كأن الله غضب علينا ، فلم يتبق من هذه الأسرة الكبيرة سوى أربعة أيتام ، لا يصلح هذا القدر الكبير لطهى فتاتهم ، فاحمله يابنى لعلك تجد مشتريا له !!

ـ أيتها الجدة العزيزة : لا تقولى مثل هذا الكلام ، على الرغم من أن الزمان يمضى عصيباً ، سوف يجتمع شمل هذا البيت مرة ثانية ، وتطهين فى هذا القدر ، فاتركيه لهؤلاء اليتامى . وليستجيب الله لأمنيتى وأساهم فى عرسهم ، أتركك فى رعاية الله أيتها الجدة العزيزة على الرغم من أن نور الصباح لم يشرق .

الى اللقاء أيها الأبن الحبيب ، واللص العزيز ، فليحفظك الله ولا تنسى سقف بيتنا الفقير .

إلى اللقاء ياجدتى العزيزة .

... حينذاك عرفت ذلك اللص ، ولكن فى مثل هذا الموقف لن أكشف عن شخصيته .

تمـــت

تحليل القصة

الواضح من هذه القصة أن أحداثها قد وقعت خلال فترة نضال حركة المقاومة الوطنية التى أستمرت من عام ١٩١٨ م حتى عام ١٩٣٢ م ، ويبدو ذلك فيما ورد على لسان بطل القصة عن حديثه عن فقدانه لوالديه فيقول :

مضت بضع سنوات على وفاة أبى ، بعد أن فقدت ايضا أمى فى عام ١٩١٧ م ، فأصبحت الآن يتيم الوالدين (١)

وهى تصور تدهور الأحوال الاقتصادية والإجتماعية ببلاد تركستان خلال هذه الفترة ، نتيجة لصراع الفدائيين ضد الغزو السوفيتى

ويهدف الكاتب فى هذه القصة إلى هدفين هما :

أولا : إحباط همم الشعب التركستانى وعزائمه عن التفكير فى مخالفة أو مقاومة السلطات الروسية ، وقد استغل الكاتب من أجل الوصول إلى هدفه ، العنصر النفسى فى التأثير على القارىء ، وساعده على بلوغ هدفه ظروف حياته الخاصة التى أحاطت به ، وفقدانه والديه فى سن الصغر ، فنجح فى تهويل وتجسيم سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وما نتج عن تدهور الأحوال من فقر وجوع وسلب ونهب وتشريد وإفلاس .

غير أننا نعود فنقول أنه ليس من المستبعد أن يكون تدهور أحوال البلاد على هذا النحو كما صوره الكاتب ، ناتجاً عن السياسة السوفيتية لتجويع الناس أملا فى تطويعهم لإرادتها ، وليس ناتجا عن النضال الفدائى ويؤيد هذا ما سبق أن ذكرته عند تناولى للتاريخ عن حرب التجويع التى سلكتها السلطات الروسية مع القرم ، لما وجدت حبل المقاومة طويل ، بسبب اعتصام جيشها بالجبال ، واستماتته فى الدفاع ، وإعانة الأهالى له بكل ما يملكون من زاد وقوة .

والمعروف كما بينت لنا القصة السابقة ، أن رجال الحركة الفدائية كانوا يحاربون الجيوش الروسية من وراء الجبال ، بعد السطو على مخازن أسلحتهم وذخيرتهم ، وتخبئة هذه الأسلحة والذخيرة فى باطن هذه الجبال .

---

(١) أنظر القصة : ص ٧١ .

فلنتناول أحداث القصة لنبين صدق ما نقول :

١ ـ عدم توفر الاستقرار ، بسبب تدهور إقتصاد البلاد ، ويبدو ذلك فيما ذكره اللص أنه تخلى عن مزاولة حرفة آبائه ، لعدم توفر المواد اللازمة لمزاولتها ، وعدم تمكنه من الاشتغال حمالاً بسبب توقف حركة البيع والشراء فى الأسوق (١)

أيضا حديثه عن التاجر المشهور الذى يدعى « بوامت آتا » ، وتصفيته لدكانه الذى يقوم فيه بصناعة الأحذية ، وشرائه ثلاثين كيلو من الذرة كمخزون لأسرته ضد تقلبات العصر ، نتيجة لتوقف حركة الشراء والبيع ، التى سببتها سوء أحوال البلاد الاقتصادية (٢)

٢ ـ التركيز على تصوير حالة الفقر المدقع التى تسود البلاد بسبب انتشار المجاعات الناتجة عن الحرب ، ويبدو هذا في مواضع كثيرة من القصة وأهمها :

(أ) أرق الجدة ، وعدم مقدرتها على النوم منذ ستة أشهر على حد قولها ، وذلك لفشلها فى توفير أسباب العيش لأحفادها ، وتفكيرها فى مستقبلهم المظلم (٣)

(ب) خال بطل القصة الذى يعمل حوذيا ، ولا يكفى راتبه لتوفير الكفاف لأسرته بل باع متاع بيته من أجل الإنفاق عليها (٤)

(ج) اللص الذى قامت عليه أحداث القصة ، يعول أسرة مكونة من طفلين وزوجته وأمه ، وقد دفعت به ظروف العصر العصيبة إلى السرقة ، عن طريق إنضمامه إلى عصابة ، ويبدو ذلك فى حديثه للجدة فيقول : هل تعتقدين أننى أبغى أن أكون لصاً ؟ كانوا يقولون إن الحرب ستنتهى بعد تولية كرينسكى رئيس وزراء الحكومة المؤقتة قبل الثورة ، ولكن لا تبدو لها نهاية على الإطلاق ! (٥)

بل أنه إنسان شريف ، على استعداد أن يهلك نفسه فى سبيل الحصول على لقمة العيش لو تتوفر ، ويبدو ذلك فى قوله للجدة : من أجل هذا ، فلو توفر لدئ رغيف من خبز الشعير ، فإننى ألقى بنفسى إلى الهلاك وإلى سيف على (٦ »

---

(١) انظر القصة : ص ٧٢

(٢) انظر القصة ص ٧٣

(٣) أنظر القصة ص ٧٢

(٤) انظر القصة : ص ١٠٩

(٥) انظر القصة : ص ١١٠

(٦) نفس الصفحة السابقة

كما أنه يخجل من نفسه لسلوكه هذا الطريق ، ولولا الحاجة لما أقدم على السرقة ، ويبدو ذلك فى رفضه لما قدمته إليه الجدة ، وحرصه على الانصراف قبل شروق الصباح ، كى لا تتعرف عليه .

(د) إنتشار الفقر المدقع بين سائر أفراد الشعب ، لدرجة أنهم صاروا حفاة ، ليس فى مقدورهم شراء أى شيء حتى الحذاء . ويبدو ذلك فيما ورد على لسان اللص للجدة : هل أى أو زبكى أو قازاخى أو قير غيزى لديه المقدرة الآن على شراء حذاء يلبسه ؟ (١) .

(هـ) إرتفاع نسبة التسول والتشرد بين الاطفال بسبب فقدانهم آباءهم فى هذه الحروب والاضطرابات ، فصاروا كما صورهم المؤلف هائمين فى أرجاء المدينة ، يمدون أيديهم للسؤال .

أما الهدف الثانى الذى سعى الكاتب إلى تحقيقه ، فهو إثارة الطبقة العاملة ضد الإقطاعيين لعدم تأييدهم للثورة ، بهدف كسبها إلى جانب السلطة ويبدو ذلك فى تركيزه على بيان الكساد الذى يعيشه العمال والصناع ، متخذاً شخصية اللص نموذجاً لهذه الطبقة ، وإشارته صراحة إلى هذا الكساد على لسان اللص فيقول : لست أنا فقط على هذه الحال ، فهذا مصيرى ومصير جميع الحرفيين ، فصناع السكاكين والدباغون ينبحون من أجل لقمة العيش بلا طائل (٢) .

ثم يبين بعد ذلك إستعلاء هؤلاء الإقطاعيين على الطبقة العاملة ، وعدم تعاطفهم معها فى هذه الظروف العصيبة ، التى تمر بها البلاد ، ويبدو ذلك فى تبرير اللص عدم لجوئه إلى أحد الإقطاعيين ، فيقول مخاطبا الجدة :

لعلك لم تذهبى إلى منازل الاقطاعيين ؟ إن أسوار منازلهم عالية وأبوابها حديدية ، وداخل دار كل واحد منهم كلاب ضخمة كالذئاب ، لو تحلق فراشة فى صحن الدار ، ينبحون مدة أسبوع ، فعلى سبيل المثال يقف أمام بيت (أديخ خواجة با) شرطى للحراسة ، إذا لم يقتل أحداً ، حتما سينفى إلى سيبريا (٣) .

ولكن بعد تحليلنا لهذه القصة ، نستطيع أن نتبين بعض الحقائق من بين سطورها وهى :

---

١ ـ انظر القصة ص ٧٢

٢ ـ نفس الصفحة السابقة

٣ ـ نفس الصفحة السابقة .

١ ـ تأكيد ما ذكرته الأحداث التاريخية التى سبق عرضها ، وهى أن كفاح الشعب التركستانى ضد الغزو الروسى لم يبدأ منذ ثورة أكتوبر ، ويبدو فيما ذكره مؤلف القصة على لسان اللص ، فيقول : « قالوا إن الحرب ستنتهى بعد تولية كرينسكى رئيس الحكومة المؤقتة قبل الثورة ، ولكن لا تبدو لها نهاية على الإطلاق ! »

٢ ـ تأكيد سياسة السلطات الروسية ، فى نفى أفراد الشعب التركستانى إلى مجاهل سيبريا ، كما سبق أن بينت عند تناولى التاريخ ، وذلك بهدف تنشئة جيل جديد ، تتمشى مبادئه ومعتقداته مع النظام الشيوعى ، ويبدو ذلك فى استشهاد كاتب القصة بأحد الاقطاعيين الذين لم يكتفوا برفضهم مساندة طبقة العمال والصناع ، بل قاموا بنفيهم إلى سيبريا ، يقول على لسان اللص مخاطبا الجدة : « فعلى سبيل المثال يقف أمام بيت (آديخ خواجه با) شرطى للحراسة ، إذا لم يقتل أحداً ، حتما سينفى إلى سيبريا .

٣ ـ غلبة النزعة الإسلامية على كاتب القصة ، على الرغم من مسايرته للسلطات السوفيتية الشيوعية ، ويبدو ذلك فى أكثر من موقف فى القصة وهى :

(أ) إلمامه بالسيرة النبوية ، ويبدو ذلك فى قسم اللص بأنه سيهلك نفسه بسيف على فى سبيل الحصول على رغيف من خبز الشعير . وهذا السيف معروف فى كتب السيرة النبوية الفقار ، ولذلك من ألقاب على لقب ذو الفقار ، وكان الرسول صلوات الله عليه قد أهداه لعلى ، وأنزله بعض المعارك ، فلم ينج منه كافر وقف أمامه . وعلى حسب الروايات الواردة فى كتب السيرة النبوية استخدم على هذا السيف لأول مرة فى غزوة خيبر فى السنة الثامنة من الهجرة،حينما أمره النبى صلى الله عليه وسلم أن يهاجم أحد حصون خيبر ، كان قد امتنع عن الفتح ، فتمكن على بسيفه من فتحه وهو مصاب الرمد ، ولم يكن قد طعم إلا خبز الشعير .

فقسم باللص بسيف على كناية عن أنه سيهلك نفسه بأقوى سيف ألا وهو سيف على الباتر .

(ب) مراعاته للأخلاق الإسلامية التى يجب أن يتحلى بها المسلم ، وتبدو فى موقفين هما :

الموقف الأول يتجلى فيه واجب الأبناء نحو الوالدين كما أوصى الله عز وجل هذا الموقف هو سؤال خال بطل القصة الفقير عن أمه وأحفادها ، وعطفه عليهم ، وتوفير الطعام لهم على قدر استطاعته على الرغم من عدم مقدرته على إعالة

أسرته ، ويبدو ذلك فى قول الجدة للص : « أمس أحضر خال هؤلاء الأطفال اليتامى رغيفين من الخبز ، فأكلناهما سوياً (١)

أما الموقف الثانى يتجلى فيه إكرام الضيف ، وعدم رد السائل خائباً ، والعرفان بالجميل ورده ، ويبدو ذلك فى نهاية القصة ، حيث كشف الحوار عن تأثر الجدة لحال اللص ، وإصرارها على مساعدته بإطعامه وإعطائه القدر الكبير لعدم إحتياجها له ، بسبب تشتت شمل أسرتها من أجل بيعه . والانتفاع بثمنه ، لكنه رفض مقدراً هذا الجميل ، وداعيا الله بعودة شمل أسرتها ، ومشاركته فى المستقبل فى عرس أحفادها . » ٢)

غير أن هذه المواقف تكشف لنا فى النهاية عن مدى تأثير الإسلام بين أفراد الشعب التركستانى فى تعاطفهم وتآخيهم فى الشدائد ، على الرغم من الظروف العصيبة التى يعايشونها .

---

١ ــ انظر القصة : ص ١١٢

٢ ــ انظر القصة : ص ١١٢ ــ ١١٣

القصة الثالثة

المقدمة .

عنوان هذه القصة (محمد لجوج) أى محمد المتعجرف ، وهى تتناول شخصية رئيس قطاع من قطاعات المزرعة الجماعية ، كان مخلصا فى عمله ، يتفانى من اجله ، وقد دفعه إخلاصه الشديد فى العمل بالإضافة إلى طباعه الحادة إلى معاملة الناس معاملة خشنة ، جعلتهم يسيئون الظن به ، ويتهمونه بالتسلط وعدم الحياء والأدب .

وتدور أحداث القصة حول تصويرها لأثار سلوكه هذا فى مواقف مختلفة من حياته ، فى بيته أو عمله أو فى معاملاته العامة ..

أما مؤلف القصة فهو الكاتب (اوكتام عثمانف) المولود عام ١٩٣٨ م ، والذى مازال على قيد الحياة ، والحاصل على شهادة الليسانس فى التاريخ من جامعة طشقند ، وقد عمل أيضا بالصحافة ، كما نشرت له مجموعات قصصية ، تحمل هذه العناوين : (پسرپچه شرط ميبندد) أى الطفل المقامر ، و (رعدهاى بهارى) أى رعد الربيع ، و (شب ناراحت) أى الليل الكئيب ، و (راه هاى جوانى) أى أساليب الشباب ، كماأن له قصته الشهيرة (گرداب) أى الدوامة .

محمد المتعجرف

فارع القامة كالمارد ، يلف شالاً حول رقبته النحيفة فى شكل غير متناسب على الإطلاق مع قامته الطويله النحيلة ، يبدو التسلط والتجبر فى نظرات عينيه الزرقاوتين فى وجهه النحيف الطويل ، حتى أن البعض يتخيله عديم الحياء والأدب .

دائما يمسح بيده اليمنى على شاربيه ، حينما يحتد مزاجه لايقيم وزناً لأحد حتى رئيسه ، ومع أن الناس تحترمه وتناديه (محمد آكَه) (١) ، لكنها قطعاً تدعوه من خلف ظهره بمحمد المتعجرف ، وحقا كم هو متعجرف .

يوجد مقهى متواضع تحت شجرة بلوط عتيقة عند ملتقى طرق أربعة ، إليها يدعوك (إبراهيم آتا) الشيخ المسن ذو اللحية البيضاء لتناول الشاى ، ولو أنه خالى البـ ـ ، سوف يقص عليك مواقف عجيبة لمحمد المتعجرف

فى المنزل

حدث شىء عجيب ، وهو أنهم عينوا محمد المتعجرف هذا رئيسا للقطاع ، قطعا ليس شاباً شريراً ، ولايمكن أن نذكر إساءة فى حقه ، ولكن كل مافى الأمر أن طباعه حادة ، حتى أنها تبدو أحيانا غيركريمة، أنا أقول بعضها، ولكن لو لديك الجرأة اسأل زوجته !! نحن جيران سلامت خان (اسم زوجته) ، هل تصدق أن هذه الزوجة أسرعت إلينا باكية ناحبة ؟ أتتوقع ماذا حدث لها ؟

فى الصباح الباكر ، كانت تحتسى الشاى مع زوجها فى هدوء ووئام ، كان الزوج يطالع الجريدة اليومية ، ويتناول أقداحاً من الشاى تلو بعضها ويفرغها ، وزوجته تصب له الشاى فى حماس وهمة ، وتضع أمامه الخبز الطازج ، والقشدة الطازجة . وحينما يهم الزوج بالانصراف الى المزرعة ، كانت سلامت خان تناديه عند فناء البيت فجأة وتقول له : « هل سأبقى فى المنزل وحيدة اليوم ، ثم تأخذ فى البكاء والنحيب ، إنك ترى بنفسك كيف صار شكل وهيئتى ؟ أمعقول هذا !! أيليق إن

---

(١) (آكه) فى اللغة التركية الجغتائية بمعنى الأخ الأكبر ، أما (اتا) بمعنى الأب الأكبر ، وهاتان الكلمتان تلحقان بالاسم المسمى على سبيل الاحترام .

يكون رأس إمرأة على هذه الحال ؟! وتشد سلامت خان ضفائرها بكل عنف قائلة : ما هذه ؟ أيليق لك أن تقول أن هاتين اليدين تشبهان يدى امرأة ؟ وتمد يديها الخشنة ذات الرائحة الفجة الى أنف زوجها .

فيصرخ محمد فى وجهها قائلا : ماذا أصابك أيتها المرأة لعلك جننت ؟!

وتفتم فى بادىء الأمر لعدم توقعها هذا الرد ، لكن سرعان ما يبدو فى عينيها الجميلتين ما يجول بخاطرها من تأييد لما يطلق عليه أنه متعجرف . فماذا يتوقع من الآخرين ! مادامت سلكت زوجته معه مثل هذا السلوك، يا ألهى كم يبدو حسنها فى هذا الشد والجذب فأنصت إلى لو تريد أن تعرف ماذا بعد ذلك .

قضت سلامت خان يومها كاملا فى البيت ترتب شئونه ، وفى المساء عاد محمد عابسا متكدرا ، لم يلتفت الى زوجته بنظرة وجلس على المائدة صامتا لا يجيب على أسئلتها المتكررة يفتل شاربيه من فرط عصبيته ، فاعترى القلق الشديد سلامت خان ، فهى تبثه الحب والحنان ، وتدلله بالكلمات الحانية منذ ثلاثة أيام ، وهو يخاصمها ولا يتحدث معها ، فى النهاية لم تحتمل أعصابها ، ولجأت إلى جيرانها باكية ناحبة ، كى يعقدوا الصلح بينها وبين زوجها .

فى الجلسة

هل تعتقد أن محمداً سليط اللسان ، الأفضل أن نقول أنه إنسان لا يستطيع أن يمسك لسانه،وإلا لما صدرت منه مثل هذه المهاترات .

منذ بضعة أيام انعقدت جلسة بمناسبة قدوم لجنة من مركز التعبئة فى قريتنا ، وكان محصول القطن على رأس الموضوعات التى نوقشت ، وكانت المناقشة ساخنة ، فأشادوا بأحد،وعابوا على أخر ، فسائر أهل قريتنا من الطفل حتى الشيخ يهتمون بالقطن ويباهون به ، فعلى سبيل (شا اسلام آكه) المحاسب رجل بمعنى الكلمة حقا قد خلق من أجل إدارة أعمال الجرن ، يهلك نفسه فى العمل طوال اليوم حتى غلبه النوم حينما جاء الى الجلسة منهكا ، فلما شاهد محمد المنظر رفع يده فاعتقد كبار الحاضرين أن رئيس القطاع سيدلى بشىء هام ، ثم استهل محمد حديثه قائلا : فى قديم الأزمان وجد رجل كسول كان الجميع يفترون عليه لتعجبهم من أمره ـ ولكن محمدا مسح فى تأن ـ بيده على شاربه،وواصل حديثه دون أن يلتفت الى أحد قائلا : هذا السيد الكسول يدرك أنه ينام الليل والنهار ويضطرون الى إيقاظه من أجل الطعام وذات مرة فتح عينيه فى صعوبة بعد أن نام يومين متتاليين، وفكر فى نفسه

آسفا وقال : « ما أجمل أن يستطيع المرء أن ينام يومين متتاليين ، لسببين أولهما : أن ينام فترة طويلة متصلة ، وثانيهما : أنه ألا يستيقظ إلا من أجل أن يتناول الطعام» . وأضاف محمد فى جدية قائلا : لم قصصت عليكم هذه القصة السخيفة ؟ إنه يجب علينا أن نجتهد من أجل تنفيذ خطة المشروع ونعمل على حساب راحتنا ونومنا. ولكن فى مقابل ذلك فإن شا سلام آكه محاسبنا - ليمنحه الله الصحة والسلامة - لا يكفيه النوم والراحة فى الليل ، بل يأتى لينام أثناء هذه الجلسة الهامة .

أيها القارىء العزيز أنت لاتستطيع أن تتخيل كم دوى الضحك فى قاعة الجلسة فقد ظل الضيوف الذين جاءوا من مركز التعبئة يضحكون ويتمايلون من شدة الضحك، وينظرون الى شا اسلام آكه،وعلى هذا النحو أراق محمد المتعجرف ماء وجه ذلك الرجل الفاضل .

فى الجـرن

حدثت هذه الواقعة يوم الأثنين الماضى ، فى ذلك اليوم جاء شاب من مركز التعبئة وأحضر اللافتات لتعليقها على جدران استراحة المزرعة ، كما شاهدنى رئيس المزرعة الجماعية فى المقهى وسلمنى عددا من اللافتات قائلا : أعطها لمحمد المتعجرف . وما أن وصلت إلى الجرن سمعت رئيس القطاع والمنظم لخطة العمل يتجادلان ويتناقشان ، وبعبارة أدق كان محمد يعنف بشدة معاونه ومساعده الكسول المتراخى ، وحتى أهدىء من غضب رئيس القطاع الذى كان قد اشتد به بأى وسيلة ، مددت اللافتات على عجل ، وقلت بغير انتظار ودون ابطاء : أرسل الرئيس شيئا لك داخل لفافات هذا الورق وقع باستلامه .

فأدار محمد وجهه متأففا وقال : ما هذا ؟ .

أجبت : أعتقد أنها لافتات ، يخصك الرئيس بها، حقالقد أخذت أكثر من حصتك ؟ فنظر إلىَّ رئيس القطاع فى عصبية ، ثم فتح اللافتات ، وفحصها بدقة وأعاد لفها وقال : خذ هذه اللافتات أعدها ليست لنا حاجة بها ، أين أوقع كما تقول ؟ .

فقدمت فى تأفف ورقة من الأوراق إليه، فأخرج قلما من جيبه ووقع عليها .

ورجعت غير مرتاح تماما الى إدارة المزرعة الجماعية ، لأن رئيس القطاع أساء معاملتى ، وقلت لرئيس المزرعة الجماعية : تفضل أيها الرئيس، ووضعت اللافتات

أمامه ففتحها الرئيس بلا اكتراث ، ثم بدت علامات الضيق على وجهه ، وقال فى نفسه : عجبا إنه إنسان متعجرف

وبعد ذلك فهمت من الحوار الدائر فى المقهى ، أن محمد لم يوقع بل كتب معنفا الرئيس وقائلاً : « أيها الرئيس من الأفضل أن تعيد إصلاح استراحة المزرعة اليوم أو غداً ، وإلا سيكون من الخطر تعليق اللافتات فيها »

وعلى هذا النحو كان تأثير المتعجرف فى الرئيس قويا ، فأمر بإصلاح استراحة المزرعة .

فى الطريق

منذ بضعة أيام حكى صادق سائق مزرعتنا الجماعية . أنهما ذات مرة فى المساء حملا آخر حصة يومية من القطن فى السيارة ومضيا مسرعين ، لأنه لم يعد يتبقى على موعد إغلاق مركز التشوين سوى وقت ضئيل ، وكان رئيس القطاع مسرورا ، حيث كان اليوم موفقا للغاية فقد حملا مقدارا كبيرا من القطن أكبر من الوزن المقرر .

وحينما دوى صوت شرطى الحراسة عاليا ، لم يتخيل صادق ورئيس القطاع أن هذا الصوت خاص بهما ، فأوقفهما الشرطى ذو الشفتين العريضتين والسيارة الحمراء ، وأمر صادق بالنزول من السيارة ، ثم تفقد الأحمال بدقة ، هل هى حسب تعليمات النقل المقررة أم لا ؟ كان محمد رجلا منظما ودقيقا لا يقدم على أى عمل يخل بالقانون ، ولكن الشرطى بوجنيته الحمراوتين اللتين تكسبانه وقارا وهيبته أشار إلى وجود مخالفة،وطلب فى جدية من السائق رخصة القيادة ، وفحصها بدقة وظل وقتا طويلا يفحصها ،حتى أن رئيس القطاع شك أنه يجيد القراءة .

وفى النهاية أعطى هذا الشاب اليقظ الهمام الرخصة للسائق وقال : حسنا جداً سأعطيك هذا الحمل كى توصله إلى أخى فى المزرعة الجماعية المجاورة ، حيث يعمل هناك .

فقال صادق متبرماً : المزرعة المجاورة !! إن مركز تشوين المحصول أوشك أن يغلق،حينذاك ماذا سنفعل بأجولة القطن هذه ؟

ولكن الشرطى ذا الشفتين الحمراويتين لم يصغ مطلقا إليه ، حينذاك كان محمد قد جلس وقتا طويلا ممتقع اللون من شدة عصبيته ، وكعادته كان يمسح بيده على

شاربه فى تأن ، ثم قال فى هدوء : حسنا جدا اركب أيها الرفيق الجليل سنوصلك حيثما تريد ، وحينما ركب الشرطى اعتراه الخوف لأنه أدرك شخصيته ، ثم قال رئيس القطاع فى عصبية شديدة للسائق : هيا بنا إلى قسم الشرطة !

فاطمأن الشرطى لأول وهلة ، وفجأة خاف ووجل وطلب الصفح من محمد ، وأنه لن يسلك هذا المسلك مرة أخرى ، وتضرع إليه قائلا : إن لى أطفالا صغارا ·

· تعتقد كيف تصرف المتعجرف ؟ لم يقبل تضرع الشرطى ، بل عمل بقوله، فأصدروا قرارا بفصل ذلك الشرطى من الخدمة ·

هكذا كان محمد المتعجرف رجلا يعرف عمله حق المعرفة ، وقد تحدثنا عنه كثيرا،ولكن من الأفضل أن يعرف الانسان بنفسه ، ولكننى أيهـــا القارىء العزيز أوجه إليك نصيحة عليك أن تتنبه أن محمداً ليس أنانياً علىالإطلاق·

بعد ذلك سألت إبراهيم آتا عن الطريق ، ومضيت أنقل الخطى على شاطىء النهر الى مقر عمل محمد ·

وكان رئيس القطاع يشون القطن ، فسلم على سلاماً فاتراً وواصل عمله ، فقلت : كنت أريد الحديث معك ، ولكن محمداً لم يعرنى اهتماماً ، فكان هو والمحاسب يفرغان بالة كبيرة من القطن،ثم رجع رئيس القطاع إلى جانبى وقال : عزيزى أنت تعلمأنه من الأفضل أن تكتب عن العمال الأكفاء ، فقلت عن أى الانجازات أكتب ؟ لقد قال رئيس المزرعة الجماعية إن قطاعكم أفضل قطاع ·

أرخى محمد عينيه الزرقاوتين ، ومسح بيده على شاربه فى سعادة ، ثم فكر قليلا وابتسم قائلا : أنت تقول أننا أفضل قطاع ، ولكنه سرعان ما فتر وقال فى حدة وخشونة : لا يطيب لى أن يشيدوا بتقدمنا قبل الأوان ، فيجب أن نفوق الجميع فى مزرعتنا الجماعية ، فالطريق مازال طويلا أمامنا،لكننا حينما ننجز خطة العمل ، ونسلم المحصول سوف أقول لك بكل فخر تفضل لزيارتنا ·

ورجعت من مقر عمل محمد وأناأشعر بالذنب ، كم هو رجل صادق مخلص ، فطلبت المعذرة ، وعدت صفر اليدين ·

ولكن رغم كل هذا فقد صممت أن أكتب إن آجلا أو عاجلا تحقيقا عن كل عمل ينجزه محمد هذا ·

تمت

تحليل القصة

محور هذه القصة يدور حول طبيعة النظام الاشتراكى السائد فى الاتحاد السوفيتى ، من خلال تصويره للشخصية الرئيسية (محمد آكه) رئيس قطاع إحدى المزارع .

ويهدف الكاتب من هذه القصة إلى الإشادة بمزايا النظام الاشتراكى فى ظل المذهب الشيوعى ـ الذى يقوم على الملكية العامة للدولة فى الانتاج ورأس المال ـ حيث لجأ الكاتب إلى تزيين صورة المزارع الجماعية أمام القارىء ، بهدف حث الطبقة العاملة على المزيد من الإخلاص فى العمل والتفانى فيه ، كى يحقق فى النهاية الفائدة الكبرى للدولة كهدف إستراتيجى يغنيها عن الاستيراد من الغرب .

ولكن المتتبع لأخبار الاتحاد السوفيتى خلال السنوات الأخيرة يدرك أن هذا النظام الجماعى قد فشل فى تحقيق هذا الاكتفاء الذاتى ، واضطر الاتحاد السوفيتى إلى استيراد الغلال وغيرها من الخارج ، وبخاصة صفقات القمح الكبيرة التى يستوردها من الولايات المتحدة ، وكذلك عودته لاستيراد الأقطان من مصر وغيرها .

وقد حقق الكاتب هدفه من القصة عن طريق تجسيم إيمان الطبقة العاملة بهذا النظام،فصور لنا تفانى هذه الطبقة وإخلاصها فى العمل،والتنافس فيما بينهما من أجل إحراز المزيد من التقدم والانجازات ، ويبدو ذلك فيما يلى :

١ ـ محمد آكه الشخصية الأولى فى القصة ، يتفانى فى عمله ليلا ونهاراً ، حتى أنه يهمل بيته وزوجته ، بل أن إخلاصه الشديد لعمله جعله أكثر حسماً وجدية ، مما جعل الناس ومن بينهم راوى القصة يسيئون الظن فى فهم شخصيته ، ويتهمونه بأنه متعجرف (١)

٢ ـ المحاسب ذلك الرجل الجليل المخلص فى عمله ، يتفانى من أجله لدرجة أنه حضر الجلسة منهكاً فغلبه النوم أثناء إنعقادها ، فصار موضع تعريض زميله محمد به ، وتهكم رؤوساء الجلسة وسخريتهم منه (٢) .

---

١ ـ انظر القصة : ص ٨٦ .

٢ ـ انظر القصة : ص ٨٧ .

٣ ـ حرية إبداء الرأى واستجابة المسئولين لاحتياجات القطاعات ، ويبدو ذلك فى الموقف الذى صوره الكاتب لمحمد رئيس القطاع ، حينما رفض التوقيع على استلام اللافتات من رئيس إدارة المزرعة الجماعية ، وبدلا من التوقيع كتب إلى الرئيس بضرورة إصلاح إستراحة المزرعة،فاستجاب الرئيس لطلبه على الفور ، وقام بإصلاحها (١) ٠

٤ ـ تنافس القطاعات المكونة للمزرعة الجماعية العامة فى العمل من أجل تحقيق المزيد من الانجازات والتقدم ، وعقد المسابقات فيما بينها وإعطاء الحوافز للقطاع الذى يفوق سائر القطاعات ، ويبدو ذلك فى نهاية القصة من رد رئيس القطاع محمد على راوى القصة ، الذى جاء ليكتب تحقيقا عنه فقال : عزيزى أنت تعلم إنه من الأفضل أن تكتب عن العمال الاكفاء ٠

كما يبدو ايضا فى رده على إشادة رئيس المزرعة الجماعية به وبقطاعه فيقول : « لايطيب لى أن يشيدوا بتقدمنا قبل الآوان ، فيجب أن نفوق الجميع فى مزرعتنا الجماعية ، فالطريق مازال طويلا أمامنا ، ولكننا حينما ننجز خطة العمل ونسلم المحصول ، سوف أقول لك بكل فخر تفضل لزيارتنا » (٢) ٠

---

١ ـ انظر القصة : ص ٨٨ ـ ٨٩ ٠

٢ ـ انظر القصة : ص ٩٠ ٠

القصة الرابعة

المقدمة :

عنوان هذه القصة هو (درخت گردوی کهن) أی شجرة الجوز العتيقة ، وهی تحكی قصة رجل مسن يدعى (غلام قادر آتا) يعمل بستانيا فی الحديقة الخاصة بإدارةالمزرعة الجماعية ، وكان هذا الرجل يعيش فی بيت تحوطه حديقة مملوءة بأشجار الفاكهة وشجرة جوز عتيقة .

ولهذا الرجل المسن حفيد يتيم الأبوين ، قد ألحق بمدرسة داخلية ، ويأتی الى جده فی يوم العطلة كی يقضيه معه .

وذات يوم أخبر رئيس المجلس المحلی للقرية البستانی ، أن إدارة المزرعة الجماعية أصدرت قراراً بإزالة بيته ، لأنه يقف حائلاً أمام شق طريق خطط له كی يربط بين قريتين ألحقتا معا ، فحزن حزنا شديدا وخاصة أنهم سيحطمون الأشجار ومن بينهما شجرة الجوز العتيقة تلك الشجرة التی تعيش معه ذكرياته الماضية .

ثم يحكی لنا من خلال حديثه عن هذه الشجرة نضاله فی صفوف الجيوش الحمراء ضد البسمجية .

وتنتهی القصة بأنه بعد أن انتقل البستانی إلی بيته الجديد ، اصطحبه حفيده الی الشارع الجديد الذی عبد بعد إزالة بيته ، فوجد شجرة الجوز العتيقة قائمة فی مكانها علی حافة الشارع وبجوار جذعها أريكة ، فغمرته السعادة وغلبه البكاء

أما مؤلف هذه القصة فهو الكاتب (اولمس عمر بكوف) المولود عام ١٩٢٤ م من كتاب الأوزبك المعاصرين الذين مازالوا علی قيد الحياة ، وهو كاتب قصصی ومسرحی ، حصل علی ليسانس الصحافة من كلية الآداب بجامعة طشقند ، وتطبع أعماله منذ عام ١٩٥٦ م . وقد نشرت له أول مجموعة قصصية عام ١٩٥٩ م ، ثم نشرت له بعد ذلك مجموعة أعمال نثرية من بينها قصة بعنوان (مردم ده ما) أی اهل قريتنا وقصتنا (درخت گردوی کهن) أی شجرة الجوز العتيقة ، (پل) أی الجسر ، و (برگهای طلائی) أی أوراق الشجر الذهبية ، و (چه گرفتاری ندارد) من ذالم

يؤسر ، و (معشوقه) أى الحبيبة و (مشكل است انسان بود) أى من الصعب أن تجد إنساناً .

كما يقوم اولمس عمر بكوف بعمل سيناريو لبعض الأفلام السينمائية ، ومن بين الأفلام التى قام بعمل السيناريو لها فيلم (يك پسر ودختر جوان) أى الشاب والشابة و (روز عمده) أى يوم الحاسم ، و (ابرهاى سفيد) أى السحاب الأبيض .

وقد ترجم إنتاج اولمس عمر بكوف الأدبى إلى مختلف لغات الاتحاد السوفيتى ، وكذلك العديد من اللغات الاجنبية .

شجرة الجوز العتيقة

جلس (غلام قادر آتا) المسن فى صحن داره مستغرقا فى التفكير ، وهو يحس فى ظهره نفس إنحاء القبة التى ظلت تكسو هذا الصحن لسنوات طوال ، وظل جالساً على هذه الحال ثلاثة أيام يسبح فى عالم ذكرياته ، بينما كان منذ أيام مضت يغلق بوابة بيته ، ويذهب الى المقهى ليقابل رفاقه ، ولأنه يعيش بمفرده كان يقضى الوقت معهم حتى منتصف الليل فى الحديث والتسلية ، ماعدا يوم العطلة فهو يقبع فى بيته ولا يتوجه إلى أى مكان بعد الغداء ، ثم يجلس تحت شجرة الجوز العتيقة ، منتظرا حفيده الطفل محمد على حينما يأتى من المدرسة الداخلية لزيارة جده ، وكانا كلاهما يحبان الأرز المطبوخ ، ذلك الطعام الخاص بإمارة فرغانة ، لذا كان غلام قادر آتا ، يذهب الى السوق كل يوم سبت ليشترى تموين الأرز .

وكان حفيده يضيق ذرعا عندما يراه متعبا ، فيمط شفتيه ويقول متأففا ، حقا لو كان السوق قريبا ، لربما كان قد جلب لك بعض العناء ، وربما لم يجلب لك عناء على الإطلاق ، إلا أنك تقطع طريقا بعيدا .

فينظر غلام قادرا آتا إليه مسرورا ويقول : طفلى الحبيب الشقاء رفيق للمسنين دوما ، لقد كان جميع أفراد أسرتك يحبون الأرز ، هكذا كان المرحوم والدك كما كانت أملك أيضا ..

وكان غلام قادر آتا يغلبه التفكير بعد هذا الحديث . فيقطب حاجبيه المقوسين الأشيبين ويلتزم الصمت ، ثم يتمتم بكلمات غير مفهومة . وعلى الرغم من أن غلام قادرا آتا ، كان له قلب يموج بالخواطر والذكريات ، إلا أنه يطيب له أن يتحدث مع حفيده عن عروسه فى المستقبل ، فما أكثر ما استمع محمد على إلى هذا التدليل ، أن يقاطع حديث جده مطلقا ، بل كان يصغى إليه فى شغف شديد .

وكان الطفل يجهل أمه ، فقد توفيت وهو فى الثالثة من عمره ، كل ما يتذكره عنها أنها كانت بيضاء البشرة ، ممتلئة القوام ، مبتسمة على الدوام . أما والده فهو لا يعرفه إلا من خلال الصورة المعلقة على جدار الحجرة ، لكنه يعرف أن والده كان يخدم بالجيش ، وأنه قتل بسبب لغم لقى عن عصر الفاشيين ، ولكن كم انقضت سنوات كثيرة على هذه الواقعة ، وأصبح يعيش فى هذا البيت شخصان فقط هو وجده .

وحينما يحين موعد العودة إلى المدرسة ، كان يصطحبه إليها (حكيم آكه) صديق والده الذى كان يخدم معه بالجيش ، ويشتغل الآن بتدريس اللغة القومية ، وكان حكيم آكه موضع تقدير غلام قادر آتا ، لذا كان ينصح حفيده دوما ويقول له : أطع حكيم آكه ، حتى لو عنفك .

حقا كان هذا الحديث يدور فى الماضى ، ولكن عجلة الزمان قد دارت ، فكبر محمد على ولم يعد يستمع إلى هذا الحديث من جده ، بل أصبح يتحدث معه كرجل ، فألم بأمور كثيرة حيثأصبح يعرف الكثير عن أبيه وأمه وجدته ، وعلم أن جدته كانت ترافق جده فى محاربة البسمجية (أفراد العصابات المناوئة للثورة) ، وكان جده فارسا شجاعاً يحسن إمتطاء جواده كى يهاجم افراد العصابات ، حتى أنه ذات مرة أسر قائداً من قوادهم وقضى على كتيبته .

وينقضى النهار ، ويحل المساء ، وأحاديث غلام قادر آتا لاتنتهى ، فيقطع الحفيد حديثه فى هدوء قائلا : جدى،ويشير إلى السماء ، فينظر الرجل المسن إلى السماء ، ليبصر شعاع النجوم وسط الظلام ، فيتذكر المدرسة الداخلية ، ويصمت وينظر إلى صبيه بحاجبيه المقطبين ، فيبدو وكأنه ينظر إليه من بعيد ، ثم يبتسم فجأة ، فيسعد محمد على لهذه الابتسامة ، حيث يبدو أكثر وقاراً بعينيه المحاطتين بالتجاعيد ، ولحيته البيضاء المنسدلة على صدره .

ولايعرف محمد على لم يدعوه يا طبيب ، ثم يسرع ويحضر الشهادة من حقيبته ويعطيها لجده ، حينئذ يبصر درجاته الممتازة ، فيزهو ويفخر ، وتغمر الابتسامة وجهه ، فيضع الشهادة على المنضدة فى حرص ويوقع عليها فى تأن بالحروف العربية القديمة ، ثم يتأمل توقيعه ويغلقها ، ويعطيها لحفيده قائلا فى جدية : أشكرك أشكرك .

ويدرك محمد على على الفور أن جده سيسعل ويقول : حسنا يا طبيب أرينى شهادتك المدرسية .

بعد ذلك يرافق الجد حفيده إلى مدرسته الداخلية ، وعلى الرغم من أن الوقت مبكر ، لكنه لايذهب الى رفاقه فى المقهى ، وهو فى طريق عودته ، بل يعود الى بيته ، ويجلس فى المكان الذى كان يجلس فيه حفيده ، يتصفح برنامج عمله فى الغد بعد احتساء الشاى ، لعل هذا جرأة أن ينهمك غلام قادر آتا بالإشراف على حديقة إدارة المزرعة الجماعية ، التى تبلغ مساحتها عشرة هكتارات منذ الصباح حتى الليل ، ثم يأتى إلى المقهى فى وقت متأخر من الليل .

ولكن الحال تغير فهم لا يرونه فى المقهى منذ ثلاثة أيام ، لا يخرج إلى أى مكان قابع فى بيته ، ويرجع السبب فى هذا إلى رئيس المجلس المحلى للقرية ، الذى اتخذ قرارا حديثاً بإزالة بيت غلام قادرا اتا ، كى يفسح الطريق لضم قريتين مجاورتين معا ، لذا يلزم تعبيد طريق واسع جديد من أجلهما . وبيت هذا البستانى المسن يقع على قارعة الطريق الجديد ، فلم يعارض فى إزالة بيته ، إذكيف يعارض تعمير القرى ، وكيف يعارض أن تصبح الطرق واسعة جديدة ، علاوة على هذا فان إدارة المزرعة الجماعية سيعطيه بيتا حديثا يقع فى مركز القرية.لذا حينما جاءه رئيس المجلس المحلى للقرية ، وأطلعه على قرار إزالة بيته لم يجب . بل طأطأ رأسه كأنه موافق ، ولكن حينما انفرد بنفسه ، شعر فجأة أن قلبه يعتصر ألماً ، وأنه مريض مهموم . ما مصير الحديقة ؟ هل ستبقى أشجار الفاكهة ؟ ماذا سيصيب أشجار التفاح ، والكرز ، والكثرى ، والخوخ ؟ وشجرته شجرة الجوز ماذا سيصيبها ؟ .

كان الرجل المسن يستظل تحت شجرة الجوز هذه فى حرارة الصيف الشديدة ، فيجلس تحت هذه الشجرة المعمرة العتيقة ، فلا يشعر بالظمأ ، فلم يوجد أى شخص من أهل القرية أو من الزائرين إلا ووقف ينظر إليها مشدوها لضخامتها .

وحكاية هذه الشجرة مشوقة ، فمنذ زمن مضى كان غلام قادر آتا قائدا فى الجيش الأحمر خلال فترة محاربة البسمجية.وكان القورباشى على وأمان قول وهما من أفراد هذه العصابات يشنان الهجوم على خوقند وفرغانة ، فلقيا حتفهما على يد غلام قادر آتا وفى عام ١٩٢١ م[1] ، صافحه القائد الشهير « فرونزه » وسلمه الوسام الأحمر ، وبمرافقة شهاب الدين صادروف تمكن من أسر ذلك الضابط الانجليزى ، الذى كان قد هرب فى طائرة ، واشترك مع البسمجية فى القتال فى ضاحية (بك تمير) وپسكند وپاركند . وقد زرع شجرة الجوز هذه فى فناء داره فى خلال هذه الأعوام

وذات يوم كان غلام قادر اتا يمر على قريته ـ بعد تعقبه لقاطع الطريق القورباش على ـ أبصر رجلاً مسنا ملقى على حافة الطريق ، بعد أن نكل البسمجيــة به ، وجه شاحب ملوث بالتراب ، وقد فقئت إحدى عينيه ، وكان قطاع الطرق (البسمجية) قد قيدوه فى ذيل حصان وألقوا به فى الطريق ، وحينما مال على جسده الفاقد الوعى ، أبصر غصنا صغيرا فى يديه ، كانت قد تشبثت به فى الدقائق الأخيرة وكأنه أثمن ماليديه حينذاك تعرف عليه غلام قادر اتا ... إنه سعيد عظيم بستانى من أهل قريته ، فأخذ الغصن الصغير لشجرة الجوز الذى أوشك على الذبول .

وبعد أن دفن الفرسان البستانى ، زرع غلام قادر غصن شجرة الجوز فى فناء بيته ، الذى كان البسمجية قد أشعلوا النيران فيه، فنما الغصن فى مكانه ، وصار شجرة كبيرة تجلب ثماراً ، بحيث أن أغلب أشجار الجوز الموجودة فى المزرعة الجماعية من بذورها ... فكيف يصبح الأمر على هذه الحال ؟ هل حقا سيقتلعونها من أجل تعبيد طريق واسع جديد ؟

رفع غلام قادر آتا رأسه ، ونظر إلى أعلى ، إن أوراق شجرة الجوز العريضة التى تحمى الفناء من حرارة الشمس المحرقة ساكنة الآن ، تذكره بطفل يحوم حولها ليطير طائرة ورق حجمها كبير فى حجم أوراقها ... جلس الرجل المسن فترة طويلة ينصت إلى حفيف أوراقها ، فيذكره هذا الحفيف بذكرياته الماضية مع رفاقه ، يذكره بأيام صباه وشبابه ، حيث كان شاباً هماماً يضرب بسيفه فى خفة ومهارة كالرياح العاتية ، ويعدو بجواده فى سرعة هائلة فيثير الغبار عالياً حتى السحب. هكذا كان حفيف أوراقها الخافت يعيش معه فى ذكرياته المجيدة التى يزهو ويفخر بها .

وفى هذه الدقائق نسى غلام قادر آتا شيخوخته ، ونظر إلى يديه الكبيرتين المجعدتين ، ثم قال محدثاً يديه : « ستواصلان العمل ، إنكما تستطيعان تأدية أعمال عظيمة .. » فقد كان يعتقد أن حياته المقبلة مديدة

وبينما هو مستغرق فى التفكير ، كانت الشمس تنحسر نحو الغروب ، والنسيم عليل ، كما كان هناك عصفوران يزقزقان على غصن نخيل يمتد فى الفناء ، ثم هبطا مزقزقين على كومة من التراب بجوار الموقد ، ثم اغتسلا ، فاعتقد الرجل المسن قائلاً : « من الواضح أن المطرسينهمر ، فانظر كم هما مسروران مثل الإنسان الذى لم ير الماء منذ وقت بعيد .

ثم حلق أحدهما فى خفة ، أما الثانى فقد ظل فى مكانه متعباً . ثم فكر الرجل المسن قائلا : « يجب أن أذهب الى السوق ، ولكن تمهل ، فى أى يوم نحن ؟ أهو الجمعة أم السبت ؟ لقد جاءنى رئيس مجلس القرية منذ ثلاثة أيام ، لقد كان ذلك يوم الثلاثاء ، إذن فاليوم يوم الجمعة ، ينبغى أن أذهب إلى السوق غداً . ثم صاح يا إلهى إننى لم أره طوال هذا الأسبوع .

قال هذا ، وخاف من رجع صوته ، فتلفت حوله ، فالصمت يسود البيت ، ماعدا نقيق الضفدعة الذى يصدر من داخل الجدول .

فزمجر الرجل المسن فى أسى ، وقال فى نفسه : « كأننى أخشى أن أبدأ بنفسى ، مادام القرار لم يتم تنفيذه ... نعم ... ياليتنى لم أره ... والأدهى من هذا أن محمد

على هذا الصبى الشقى مرهف القلب سيفتم حينما يرى سوء أحوالى ، من الأفضل أن أذهب لزيارته ، مادام الوقت وقت الغروب .

نهض غلام قادر آتا ، وتجول بنظره فى فناء داره ، ثم اقترب من شجرة الجوز ، واتكأ بيده على جذعها المكسو بالنتوءات والشقوق كرقبته المجعدة ، وغلبه الفكر ، فضرب بكفه على جذعها قائلاً : « يا عزيزتى إنك لم تبلغى من العمر أرذله على الإطلاق ، إن جذعك متين قوى ، ومع هذا فلم يعد لك من العمر بقية سوى بضعة أيام » . حسناً أن الصرصور يصفر فى الشقوق ، والشمس تتوارى خلف السور ، والنسيم يهب فجأة جالباً معه رائحة البصل ، حتى لاتشكى أنه لم يعد يبقى من عمرك سوى بضعة أيام » .

وتنهد غلام قادر آتا وأسرع صوب البوابة الخشبية ، ليذهب إلى المدرسة الداخلية ، لكنه ما أن وصل إليها، حتى وقف أمام بوابتها الرئيسية ، وفكر قائلاً فى نفسه : « لم أدخل ؟ لم أقلق حفيدى العزيز عبثاً ؟ لعله لن يدرك الأمر ؟ حقا لابد أن يحيط بالأمور ! .

وهداه تفكير إلى العودة ، وبينما هو فى طريق عودته ، شاهد مصابيح المقهى مضيئة ، لكنه غادره متجهاً الى بيته .

وفى فجر اليوم التالى استيقظ الرجل المسن بينما المطر كان رذاذاً ، فخرج إلى الفناء ، واغتسل كعادته بماء الجدول ، وأعد الشاى .

وكان معتاداً منذ فترة طويلة أن يتحدث مع نفسه ، فواصل حديثه قائلاً : مادام المطر قد طال سقوطه ، فسيلحق الضرر ، لقد غرقت شجرة المشمش الحديث النمو بينما لم ترتو شجرة الجوز على الإطلاق .

وبعد أن أنهى هذا الكلام ، انقبض قلبه وقال : سىء ، سىء جداً أن يقتلعوا الأشجار عبثاً

وكان المطر قد توقف ، والشاى فقدحرارته،/والبستانى المسن مازال واقفاً ، لايرى شيئاً سوى الأشجار ، تارة ينظر إلى شجرة التفاح ، وتارة أخرى إلى شجرة المشمش ، وثالثة إلى شجرة الكرز ، ورابعة إلى أشجار الخوخ ، ثم يملى نظره فى النهاية إلى شجرة الجوز ويشم رائحتها، فيغلبه البكاء فى صمت ، وتنهمر دموعه ، فتدحرج على تجاعيد وجهه .

يا إلهى ما هذا الحظ السيء ، إننى لم أشعر بمثل هذا الضعف فى أى وقت . ثم ناداه رجل بالشارع فارتجف الرجل المسن ، ورجع فأبصر جاره عبد الجليل آكه زميل رئيس المجلس المحلى للقرية .

وبينما كان عبد الجليل آكه يمد يده ليسلم عليه قال : كيف حالك ؟ لم لم أرك البارحة داخل المقهى ؟ إننا جلسنا حتى منتصف الليل نتحدث ونتذكرك . حقا لم لم تأت . أليست أحوالكم طيبة ؟ .

فابتسم البستانى ابتسامة عريضة ، وطمأنه قائلا : كلا ، أحوالى طيبة . تفضل بعد ذلك جاء رئيس المجلس المحلى القرية ، ودخل الفناء قائلا : حسناً متى ستنقل متاع بيتك ؟ ألا يناسبك البيت الذى سيعطونه لك ؟

ـ كلا،إنه بيت مناسب ، سأنقل متاعى فى أى وقت تأمر به ، ولكن لم لم ترسلوا لى رجالاً لمساعدتى ؟

ـ لوأن الأمر هكذا ، فإننى سأرسل بعض الرجال لك ، ليساعدوك فى نقل المتاع . فتدخل عبد الجليل فى الحديث قائلاً : وما شأن أشجار الفاكهة ، إنها ليست من المتاع ؟ .

ـ فأجاب الرئيس فى غلظة وحدة قائلاً : أية أشجار ؟ ليس هناك تصرف سوى إقتلاعها .

فلم يدرك البستانى نهاية الكلام ، فسأل : ماذا . ماذا ؟ فأجاب : إنهم لا يعتقدون أن هذا أمر هام يعود بالنفع عليك ، ومع هذا فإنهم سيوفرون لك الحطب فى الشتاء .

فقد الرجل المسن رشده لحظة ، وتخشبت يده التى كان قد مدها لحمل الوعاء فى الهواء ، ولم يستطع أن ينطق بحرف واحد ، وامتقع لونه ، وارتجفت شفتاه .

فى تلك الأثناء ، نهض عبد الجليل وقال : توقف المطر ، مع أنه فى هذا الوقت أفضل للفاكهة من أى وقت آخر . فلم يجب الرجل المسن ، والتزم الصمت . فاتخذ عبد الجليل جانباً وقال : حسناً جداً ، هيا نذهب سوياً ، نتفقد شجرة الجوز فنهض رئيس المجلس فى إثره قائلاً : قل للرجال الذين سنرسلهم إليك ، أن يبدأوا باقتلاع الأشجار ، فشجرة الجوز هذه لا يمكن إقتلاعها بسهولة

ـ كلا

ـ ماذا تقول ؟

فأشار غلام قادر آتا بيده الى إلباب قائلاً : قلت إننى لست محتاجاً لأحد .

ـ ماذا تقول أية جرأة هذه ؟

ـ أية جرأة ، إننى سأحطمها بنفسى ، وألقى بحطبها أمام أقدامكم .

ـ ـ تمهل سوف تدرك فى النهاية حقيقة ما أقول . عليك يا عبد الجليل أن تأتى هنا ، وتبصر ما يقوله ، لكن عبد الجليل كان قد ذهب .

ـ غلام قادر أنصت إلىّ ، إننى أريد الأفضل لك ، هل تدرك هذا ؟

وأغلق الرجل المسن الباب بعد انصراف الرئيس ، وظل يرتجف قائلاً : الحطب !! يجب أن نوفر الحطب لك ! كان يريد أن يفهمنى شيئاً آخر ، ولكن يديه كانت تشير عبثاً إلى عكس ذلك .

وانتهى حديثه ، ولم يكن معلوماً هل يتحدث مع نفسه أم إلى رئيس المجلس المحلى للقرية ، وقال : إننى متعجب .

ثم رجع إلى الفناء ، يحمل كوباً من الشاى ، كان قد أثلج فارتشف منه رشفة،ثم نظف شاربه بكم ردائه . ونظر إلى شجرة الجوز مرة أخرى ، وبعدها أسرع إلى الشارع ، فوجده خالياً من المارة ، لكنه أبصر طفلاً يلعب عارياً ، وقد أحنى ظهره متكئاً بيديه على الأرض ، وينظر من أسفل الى السماء ، فضحك الطفل حينما رأى البستانى ، حينذاك ظهرت عربة يجرها حصان محملة بالحطب من بعيد ، فتوجه الرجل المسن لاستقبالها ، وتذكر أن اليوم يوم السبت ، وهو اليوم المخصص للسوق ، وعليه أن يذهب لشراء تموين الأرز .

ثم عاد مسرورا إلى بيته فى المساء ، ووقف يعد اللحم ، ويشعل الموقد ، وهو يترنم بمقطع من أغنية جميلة قائلاً : « هل أنا أتجول وسط الحدائق الغناء » ، ثم تذكر شيئاً فصاح ضاحكاً : قل لعبد الجليل هذا ، أى كلام هذا يقوله حسنا جداً أن يميل قلبى إلى شجرة الجوز ! فماذا يهوى هو ؟ إنه يربى فرسين منذ ثلاثة أعوام ، ويريد أن يشركهما فى السباق . أليس معلوماً أن لكل إنسان هواية مولع بها ؟ إننى إعشق شجرة الجوز ، فهل هذا أمر سيىء ؟

ونظر الرجل المسن إلى شجرة الجوز نظرة خاطفة ، وتذكر أنه كان يطهى الغداء لنفسه ، ومع أن الأرز الذى طهاه لم يكن حسن المذاق ، لكنه أكله كى يكف جوعه !!

فكر الرجل المسن فى نفسه قائلاً : حينما يأتى حبيبى محمد على نتجالس ونتحدث سوياً ، غير أننى أريد أن أعرف لم يعبد الطريق على حساب بيتى بالذات ؟ وكيف أوفر الحطب للشتاء ؟ أى كلام هذا !! .

ثم دخل الفناء ، وكان الظلام قد حل،فلم يبصر الأشجار فوقف دقيقة واحدة ، ثم رجع يجر فى ضعف ، وعيناه ناعستان .

وفى صباح اليوم التالى استيقظ مبكراً كعادته ، وظل جالساً فى السرير يفكر ويتدبر بضع دقائق ، ثم نهض واغتسل بماء من الجدول موضوع فى وعاء ، وأفرغه بعداغتساله،ثم أخذ غلام قادر آتا فى حرص المنشار والفأس من بين أدوات النجارة المعلقة على جدار الحجرة ، وتوجه إلى شجرة الجوز ، وكانت ضربات قلبه تخفق بقوة ، وقطرات العرق تتساقط من جبينه على الرغم من أن النسيم كان عليلاً .

وكان يقول فى نفسه لابد أن أختبر نفسى ، وأبدأ فى كسرها منتهزاً فرصة غياب محمد على ، حتى لايقول أن جدى ضعيف هذيل ، لا يستطيع تحطيم شجرة ، ثم ضرب جذع الشجرة ضربة ، ويداه ترتعد ان ، فأحدثت صوتاً عالياً ، ثم فكر الرجل المسن قائلاً : « كلا ، ليست هناك فائدة على هذا النحو ، لو أننى لم أستطع كسرها فماذا يعنى ؟ يعنى‌أننى لا أستطيع أن أحطم الشجرة التى زرعتها بنفسى ، إذن فكيف يستخدمون المنشار ؟ ، وكيف يبنون البيوت الحديثة ؟ إذن فما هو الأهم بالنسبة للقرية ؟ شجرة الجوز أم الشارع ؟ قطعاً الشارع ، إذن فيجب تحطيمها .

فرفع المنشار مرة أخرى وصاح قائلاً : حقاً أيها الرجل المسن ، ليس معروفاً لم تتوانى على النحو ؟ هيا ابدأ أيها الرجل المسن وكسر ، لم ترتعد يداك ؟ كسر !!

فضرب المنشار بقوة فكسر غصناً يابساً ، بعد أن دوى صوت عال ، حينئذ تنهد فى صعوبة ، وتلفت مضطرباً ، وانصرف خارجاً من الفناء .

وكان عبد الجليل ورئيس المجلس المحلى للقرية قد جلسا فى إدارة المزرعة الجماعية يزاولان بعض الأعمال . فدعا الرئيس البستانى قائلاً : تفضل ، تفضل ، ونسى الرجل‌المسن أن يلقى السلام ، وقال مباشرة ، عبد الجليل ! أحضر السيارة كى أنقل متاعى !.

فسر وقال : حسناً ، كان يجب أن تطلبها منذ وقت طويل مضى ، سأرسل لك سيارة وبعض الرجال على الفور .

وفى خلال ساعة كان يحملون متاع البستانى ، وينقلونه إلى بيته الجديد ، وأصبح البيت القديم خاوياً ، لايوجد به سوى صاحبه ، ثم جلس أمام عامود الفناء المكان المفضل له ، ونظر إلى شجرة الجوز نظرة مملوءه بالأسى ، قطعاً كان يريد أن يجلس وقتاً طويلاً ، لكنه تذكر أن الوقت قد حان لمجىء محمد على من المدرسة

الداخلية، فغمرت الدموع عينى البستانى ، ولم يكن معروفاً هل هى دموع السعادة أم الحزن !.

فعلى الفور أخفى وجهه فى ياقة معطفه وقال : أجئت يا أبنى الحبيب ، إننى أنتظرك لكى نطبخ الأرز فى بيتنا الجديد ، هل تعرفه مكانه ؟.

فصاح محمد على وكأنه يفشى سر قائلاً : إننى أعرفه منذ وقت طويل ، قد دلنى عبد الجليل عليه، كم هو جميل .

فرد الرجل المسن قائلاً : بل الأجمل أن تصطحب جدك إليه . حقاً ، هو منزل جميل حديث ، فناؤه فسيح ، وسقفه عال ، وحجراته واسعه موفورة الضياء !

ولأول مرة طهى الرجل المسن وحفيده الأرز فى المنزل الجديد . لكنه كان يسمع رغماً عن نفسه ضجيج (البولدوزر) الواقف أمام بيته السابق ، ولكى لا يزعج ضجيجه الطفل ، كان يغنى أغنيته المفضلة (هل أنا أتجول وسط الحدائق الغناء » ، ولكن ضجيج البولدوزر ظل حتى الليل .

وفى الأسبوع الماضي اصطحب محمد على جده إلى الشارع الجديد ، وعلي الرغم من أن الرجل المسن لم يكن يرغب مطلقا ، لكنه لم يستطع أن يرفض طلب حفيده .

وكان غلام قادر آتا يزداد غماً كلما اقترب من مكان بيته السابق ، وقد انهدم وتساوى بالأرض ، ولم يعد للجدول أثر. ولكن ما هذا ؟ يبدو أنهم قد شقوا جدولاً جديداً ، ونظر الرجل المسن أعلى ناحية الجدول ، فأبصر على حافة الطريق شجرة ضخمة متشعبة الغصون ، وضعت أمام جذعها آريكه جديدة زرقاء اللون ، لم لمْ تُشاهد هنا من قبل ؟ يا إلهي ... إنها شجرة جوز ، إنها شجرة الجوز العتيقة !

ولم يستطع البستاني أن يتفوه بشيء سوي أشكرك يا رب أشكرك يا رب ، وعانق حفيده . واتكأ بضعف شيخوخته علي كتفه ، فنظر محمد علي مندهشا إليه ، وغلبت الدموع عينى الرجل المسن إذ لم يستطع إخفاءها .

تمت

تحليل القصـــة

الواضح أن هذه القصة تصور لنا واقع المجتمع الريفى من خلال بطل القصة البستانى المسن (غلام قادر آتا) ، الذى اتخذه الكاتب رمزاً لطبقة الفلاحين الذين يعيشون فى ظل النظام الاشتراكى فى الجمهوريات الآسيوية المسلمة بالاتحاد السوفيتى .

ويهدف الكاتب فى هذه القصة إلى هدفين وهما :

أولاً : الإشادة بالنظام الاشتراكى السائد فى المجتمع الشيوعى ، وهذا الهدف هو محور القصة الذى قامت عليه أحداثها من خلال قصة شجرة الجوز ، وقد تجلى هذا بوضوح من خلال أحداث القصة ، ويبدو على النحو التالى :

١ ـ العمل على إعادة تخطيط الريف التركستانى تخطيطاً حديثاً متطوراً ، ويبدو ذلك فى القرار الذى أصدرته إدارة المزرعة الجماعية بإزالة بيت بطل القصة البستانى المسن من أجل ضم قريتين ببعضهما،لتعميرهما وتعبيد طريق واسع يوصل بينهما ، وقد جملوه بالأشجار والأرائك كى يستريح المارة تحت هذه الظلال خلال قيظ الصيف .

ولعل الكاتب قد ركز حواره على شجرة الجوز العتيقة التى جعلها عنوانا لقصته ، فأشاد فى وصفها وإظهار أهميتها بالنسبة لبطل القصة ، لأنه أعد شجرة الجوز تمثل الأصالة لدى المسلمين ومحاولتهم التمسك بتراثهم ، وبالتالى كان خوف البستانى نابعاً مما تتهم به روسيا فى محاولتها القضاء على أصالة هذه الشعوب ، لذا كان الإبقاء عليها فى نهاية القصة دفاعاً من المؤلف ضد ما تتهم روسيا به ، وكأنه يريد القول أن روسيا الشيوعية حريصة على تراث هذه الشعوب ، فلا تخافوا يا أهل تركستان على مقدساتكم ومعتقداتكم !!

٢ ـ تسعى حكومة الثورة فى ظل سيادة العمل الجماعى الاشتراكى ، إلى تطوير الريف وتحضره ، ويبدو ذلك فى إعجاب البستانى المسن بالبيت الجديد الذى أعطى له ، فيقول مؤنباً حفيده : « حقاً ، هو منزل جميل حديث ، فناؤه فسيح ، وسقفه عال ، وحجراته واسعة موفورة الضياء » (١)

---

١ ـ انظر القصة : ص ١٠٣ .

٣ ـ توفير احتياجات طبقة الفلاحين الكادحة ، ويبدو ذلك في حوار رئيس المجلس المحلي مع البستاني بشأن اقتلاع أشجار الفاكهة ، فيقول : «إنهم لايعتقدون أن هذا أمر يعود بالنفع عليك ، ومع هذا فإنهم سيوفرون الحطب لك في الشتاء » (١) . ثم تلبية طلبه وإرسال عربة محملة بالحطب له ، حتى قبل أن ينتقل إلى بيته الجديد (٢) .

٤ ـ توفير وسائل الخدمات لطبقة الفلاحين ، ويبدو في مساعدة إدارة المزرعة الجماعية للبستاني بإرسال الرجال والعربة ، لنقل متاع بيته إلى المنزل الجديد .

أما الهدف الثاني للقصة فهو العمل على تشويه حركة المقاومة الوطنية وتشكيك الشعب التركستاني في قداسة هدفها ويبدو على النحو التالي :

١ ـ وصف أعمال الفدائيين على أنها أعمال إجرامية ، فهم يقومون بتعذيب الناس والتنكيل بهم ، فلم يسلم منهم حتى الشيوخ ، ويبدو ذلك في القصة التي ذكرها البطل عن صديقه البستاني المسن فيقول : « وذات يوم كان غلام قادر آتا يمر على قريته بعد تعقبه لقاطع الطريق القورباش علي ، فأبصر رجلا مسنا ملقى على حافة الطريق ، بعد أن نكل البسمجية به ، وجهه شاحب ملوث بالتراب ، وقد فقئت إحدى عينيه ، وكان قطاع الطرق (البسمجية) قد قيدوه في ذيل حصان ، وألقوا به في الطريق (٣) ...

وبالإضافة إلى هذا فإنهم يقومون أيضا بأعمال تخريبية ويبدو ذلك في قول الكاتب عند حديثه عن قصة شجرة الجوز فيقول : « زرع غلام قادر آتا غصن شجرة الجوز في فناء بيته الذي كان البسمجية قد أشعلوا النيران فيه » (٤) .

٢ ـ التركيز على عدم تأييد الشعب التركستاني لحركة المجاهدين ، بإنضمامهم إلى صفوف القوات الروسية ، لمحاربتهم من أجل القضاء عليهم ، ويبدو ذلك فيما ذكره عن بطل القصة البستاني المسن ، أنه كان قائداً في الجيش الأحمر خلال فترة محاربة البسمجية ، وأنه إستطاع القضاء على إثنين من المجاهدين وهما القورباشي

---

١ ـ انظر القصة : ص ١٠٠ .
٢ ـ انظر القصة : ص ١٠١ .
٣ ـ انظر القصة : ص ٩٧ .
٤ ـ انظر القصة : ص ٩٨ .

على وأمان قول اللذان كان يحاربان فى خوقند وفرغانة ، وكافأته السلطات الروسية بالوسام الأحمر على هذا العمل الجليل .

كما أنه استطاع بمرافقة أحد أبناء الشعب التركستانى ويدعى شهاب الدين صادروف أن يأسر ضابطا انجليزياً كان قد هرب ، وانضم إلى البسمجية فى ضاحية بك تمير وپسكند وياكند .

وفى نفس الوقت يحاول الكاتب تشويه المقاومة الإسلامية ، بأنها كانت على اتصال بالاستعمار الانجليزى المتواجد فى شبة القارة الهندية وأفغانستان وإيران .

بل والأعظم من هذا أن الكاتب أشار أن النساء قد اشتركن مع الرجال فى القضاء على أفراد حركة المقاومة الوطنية . ويبدو ذلك فيما ذكره عن زوجة هذا البستانى ، فيقول عند حديثه عن الحفيد محمد على : « وعلم أن جدته كانت ترافق جده فى محاربة البسمجية (أفراد العصابات المناوئة للثورة) » (١) .

غير أننا بعد تحليل هذه القصة ، نستطيع أن نتلمس بعض الحقائق من بين سطورها وهى :

١ ـ أن المجتمع الريفى فى الجمهوريات الأسيوية المسلمة بالاتحاد السوفيتى مازال يعيش فى فقر وتخلف ، على الرغم مما تدعيه الحكومة السوفيتية أنه أصبح مجتمعاً متحضراً ، تسوده الميكنة الزراعية ، ويبدو ذلك فى موضعين من القصة هى :

أ ـ إشارة رئيس المجلس المحلى للقرية للبستانى بأن المسئولين سيوفرون له الحطب فى الشتاء بعد إقتلاع أشجار حديقته ، ويعنى هذا أن وسائل الترفيه الحديثة لم تدخل بعض المناطق الإسلامية من الاتحاد السوفيتى على عكس المناطق الأوربية من ذلك الاتحاد

ب ـ المشهد الذى صوره لنا الكاتب عرضاً عن أحد أطفال القرية ، فيقول عند حديثه عن البستانى : « لكنه أبصر طفلاً يلعب عارياً ، وقد أحنى ظهره متكئا بيديه على الأرض من أسفل إلى السماء ، فضحك الطفل حينما رأى البستانى » (٢)

٢ ـ تأكيد أن نضال الحركة الوطنية كان واسعاً شاملاً أحياء كل إمارة ، وذلك من

١ ـ انظر القصة : ٩٦ .
٢ ـ انظر القصة : ص ١٠١ .

خلال إشارته إلى أن غلام قادر آتا تمكن من أسر الضابط الانجليزى ، الذى اشترك فى القتال مع البسمجية فى ضاحية (بك تمير) وپسكندو پاكند

٣ ـ تأكيد ما ذكره التاريخ عن سياسة روسيا فى القضاء على قومية شعوب تركستان ، وقطعهم الصلة بينهم وبين تراث ماضيهم أملاً فى ترويسهم ، مثال ذلك تغيير حروف الهجاء والكتابة من العربية إلى الروسية ، ويبدو ذلك فى هذا المشهد من القصة عن البستانى المسن : « فيضع الشهادة على المنضدة فى حرص ، ويوقع عليها فى تأن بالحروف العربية القديمة » (١).

٤ ـ معاناة طبقة الفلاحين فى ظل النظام الاشتراكى ، ويبدو ذلك فيما ذكره الكاتب متعجباً من بطل القصة البستانى المسن ، يقول : « لعل هذا جرأة ؟ أن يشرف على حديقة إدارة المزرعة الجماعية التى تبلغ مساحتها عشرة هكتارات وينهمك غلام قادر آتا فى بالعمل فى هذه الحديقة منذ الصباح حتى الليل » (٢) .

---

١ ـ انظر القصة : ص ٩٦ .

٢ ـ انظر القصة نفس الصفحة السابقة .

القصـــــة الخامســــــة

المقدمـــة :

عنوان هذه القصة (چنار) أى البلوط ، وتدو أحداثها حول رجل من أهل المدينة سافر إلى الصحراء لزيارتها ـ على حد قوله ـ فتوقفت الحافلة به وسط الصحراء ، فأصطحبه شيخ صاحب مقهى ، وأحسن ضيافته . ثم تدور القصة بعد ذلك من خلال الحوار الذى دار بينهما ، حيث يبرز الكاتب من خلاله سياسة الحكومة السوفيتية من أجل تعمير الصحارى وزراعتها .

وتنتهى القصة بوصول حافلة المزرعة إلى المقهى ، لتعود ببطل القصة إلى المدينة ، حيث يتحدث مع السائق فى طريق العودة ، فيعرف منه قصة صاحب المقهى ، ومأساته فى مقتل زوجته على يد واحد من أبناء الاقطاعيين .

ومؤلف هذه القصة هو الكاتب لطيف محمود وف المولود عام ١٩٢٥ ، والذى ما زال على قيد الحياة ، وقد بدأت قصصة تجد طريقها للطباعة والنشر منذ عام ١٩٥٧ م . وأكثر ما اشتهر عنه تخصصه فى قصص الأطفال والشباب ، ومن قصصه التى ترجمت إلى الروسية قصتنا (چنار) ؛ وقصة (عقاب) أى طائر العقاب ، و (راز رودخانه خروشان) أى النهر الهادى ، ويكتب لطيف محمود وف بعض المسرحيات التى تعرض على مسارح جمهورية اوزبكستان ، ومنها مسرحية (پسرچة كه توسط عقاب دزديده شد) أى الطفل الذى تعلم السرقة من العقاب ، (روزنامه اسرار آميز) أى رسالة الأسرار ، ودعلى وولى ، أى على والولى .

البلوط

توقفت الحافلة بى فى الصحراء ، فنزلت هائماً لا أعرف إلى أين أذهب ؟ تبدو أمامى صحراء جرداء ، لا يعمرها بيت أو شجرة فى أى مكان ، ثم بدا منعطف ترابى بالقرب من الطريق الرئيسى به مقهى قد فرش بالحصير ، وعلى جانبها شجرة ضخمة من بين غصونها المتشابكة تبدو أشعة شمس الغروب متعددة الألوان . كانت هذه الشجرة تبدو كأحد المعالم الأثرية النفيسة ، بينما تصدر أوراقها حفيفا خافتاً وكأنها غير راضية عن رياح الصحراء بلهيبها وقيظها .

أمعنت النظر إلى جذع الشجرة ، فشاهدت قبراً أسفله ، وكانت الأغصان المتشعبة الضخمة قد عانقت شاهد قبرها ، وكأنها تحفظه من أى مكروه !!

فتوجهت إلى القبر ، واجتهدت أن أقرأ ما وسطر على شاهده ، ولكن الحروف كان قد انمحت بمرور الزمان ، بحيث يصعب قراءتها .

جلست على حافة المنعطف الترابى ، أنتظر سيارة عابرة ، حتى حل الظلام ، وسكنت الرياح ، وساد السكون ، وكأن الصحراء قد أصابها الاعياء ، فاستغرقت فى النوم بفعل القيظ .

ثم سمعت سعالاً فرجعت ، فإذا بى أبصر شيخاً قصير القامة نحيلاً ، فسأل فى سخرية : أستمكث وقتاً طويلاً ها هنا ؟

فأجبت فى لهفة على هذا السؤال المفاجىء : سلاماً يا والدى - فرد قائلاً : لابد أنك جائع ، هيا بنا نذهب ، فلا يمر عابر سبيل من أمام مقهاى بلا توقف .

حملت حقيبتى ، ومشيت فى إثره ، حتى وقف بى أمام باب كبير ، وأخرج كبريت من طرف شاله الملفوف حول وسطه ، وأضا المصباح ، وعلقه أعلى الباب ، وقال لى : تفضل مرحباً بك ، ثم جعلنى أتقدمه كى أجلس على أريكة ، ثم أحضر وعاء وبعض الحلوى وإبريق الشاى ، وضعها أمامى ، ثم أحضر رغيفاً من الخبز كان يحفظه بين طيات فراشه ، وقطعه قطعاً صغيرة ، ولما لاحظ دهشتى ، قال مبتسماً : إننى أحفظها من الرياح كى لا تجف ، ثم أكمل قائلاً : كل أيها الأبن العزيز ولا تخجل ، سأعود لك على الفور .

حمل الشيخ الوعاء وخرج ، ومرة أخرى هبت رياح عاتية خلف الباب الشبه مفتوح ، ولم يمض الكثير حتى عصفت بالباب عصفاً ، فبدا وكأنه سيتهشم ، وارتعدت شعلة المصباح المضيء عدة مرات ثم خبت .

فنهضت وأغلقت الباب وأشعلت المصباح ، فاستعاد المقهى ضياءه ، وفجأة سمعت صوت هديل ، فنظرت إلى السقف ، حيث شاهدت قفصاً بداخله حمامات ، تحرك أجنحتها وتنقر بمنقارها في جدرات القفص .

ثم عاد الشيخ ، وجلس أمامي بعد أن أغلق الباب،وقال: رياح عاتية ، يكاد الإنسان يطير من شدتها ، تهب دائماً مع حلول الليل ، لقد زرعت شجرتى تفاح على حافة المنعطف ، أسرع لريهما كل ليلة ، ثم قال : أيها الأبن العزيز لم لا تشرب ؟ اشرب ، فليس معلوماً متى تفد إلينا سيارة أخرى !!

ولما رأى الشيخ تمنعى عن الشراب ، ألقى بقطعة من السكر داخل قدحى ، ثم قطع رغيفاً اخر من الخبز .

جلسنا صامتين ، مستمتعين باحتساء الشاى المعطر ، نتبادل النظرات ، فاستهل الشيخ الحديث قائلاً : معذرة إن كنت أمعن النظر إليك ، فلا يساورنى أى شك أنك من أهل المدينة ، لكن الشيء الذى أريد أن أستفسر عنه أين كنت ذاهبا ؟ ولم مررت من هنا ؟

فقلت فى جرأة : المدينة ضيقة ومزدحمة ، فسلكت الطريق إلى الوديان والصحارى ، كى أستنشق هواء نقياً .

نظر الشيخ إلىَّ مندهشاً ، ولكننى أكملت حديثى قائلاً : فى الحقيقة كنت ذاهباً إلى المزرعة ، لكننى نزلت من الحافلة ، وأخذت أفكر إلى أين المسير ؟

فالتقط الشيخ أنفاسه ، وعقد يديه على ركبتيه وقال : آه حسناً، ستأتى سيارة المزرعة على الفور ، وأنا نفسى سأبعثك ، حسناً أعطنى قدحك لنراه ، لا تخجل ، إن ترد الحقيقة ، فأنا أيضا من أهل المدينة من أهل قره تاش ، لابد أنك سمعت عنها . إننى أذهب إلى المدينة مرة كل عام لزيارة أبنتى وأحفادى ومقابلة أصدقائى ، ومع ذلك فقد اكتسبت عادات الصحراء وتقاليدها ، إن كل من يتنسم نسيم الصحراء ، لا يرتحل عنها قط . إن الصحراء أرض آسرة ، وإلا فبالله عليك حينما أنزل فى ضيافة ابنتى ما يقرب من شهر ، لا يتحقق لى هذا على الإطلاق ، فالحنين يعاونى بعد مغادرتها بثلاثة أيام أو أربعة ، فأسارع بالعودة إليها ، هذه هى طبيعة الإنسان ، يميل إلى المكان الذى أمضى فيه معظم سنين حياته .

ثم قدم لى الشيخ قدحا من الشاى ، وغلبه التفكير فبدت التجاعيد على جبينه ، وكأنه يسترجع ذكرى خالدة لا تنسى ، ثم قال : طوال سنين عمرى كان لى صراع مع الصحراء ، واستطعت فى النهاية التغلب عليها ، لقد مضى شبابى هباء كرياح الصحراء ، ولكننى لست اسفا عليه ، حقا إن الشباب كالنهر الهائج ، فلو يمسك الإنسان بزمامه فى يده ، حقا سيحول الصحراء إلى روضة غناء ، ولكن إذ إنفلت زمام الشباب من يده ، تبعثر منه كمئات من الجداول الصغيرة ، فيفقد قيمته ، ويولى عبثا ، أيها الابن العزيز أدرك قدرالشباب ، فالشباب له قيمة ثمينة ، كنت أتمنى أن أجيء إلى الصحراء من زمن طويل ، ذات مرة جئت فى طفولتى مع والدى إلى هنا ، ولم يكن يساورنى الشك مطلقاً فى أنهم يريدون مزرعة فى هذا المكان ، ولكننى لا أعرف لم لمَ أنسى شجرة البلوط هذه ، إن كل شىء قد تغيرت معالمه ، لذا لا تستطيع التعرف الان على أى مكان ، لقد أحاطوا كل منطقة بالحدائق ، وأقاموا مخبزاً ودوراً جديدة للسينما ومقهى جديد ، بالأمس جاء المشرف على المزرعة كى يتشاور معى بشأن إستراحة المزرعة ، ولم يكن لديهم الرغبة فى تجديد المقهى ، إن الناس يفدون إلى هنا بأعداد وفيرة،وكماترى بنفسك أن مركزنا المحلى بعيد ، والأراضى جرداء ، فإلى أين يذهب المسئولون إذا اتوا إلى هذه المنطقة ، وبمن يسترشدون ؟! وقد تشاورت مع المسئولين فى المزرعة إلى ضرورة هذا وذاك ، وكم يكون مفيداً ، لو يعاد إصلاح المقهى ، حيث يفد الجميع للتمتع بشجرة البلوط هذه ، فأعجبوا باقتراحى، وبدأوا التعمير هذا العام فقط ابنى العزيز إن كل ما تدخره الشيخوخة من ذكريات عن الشباب عزيز غال ، والحقيقة أن الإنسان بهذه الذكريات كمن تخرجه من الماء وتلقى به فجأة فى النار .

سكت الشيخ وأخذ يتأمل الزخارف المنقوشة على القدح ، وسكت أنا أيضا ، ولم أرغب فى تحطيم هذا الصمت ، ثم لاحظت أن ذكرياته الأليمة التى وردت خلال حديثه معى ، قد أشعرته بالضيق ، فبدا وجهه شاحبا نحيفاً ، وكنت أريد أن أسأله عن القبر الموجود تحت شجرة البلوط ، ولكننى لم أجرؤ،وبعد فترة ونحن على هذه الحال ، سألته فى حرص ، لكنه لم يجبنى بشىء قط ، أفلم يسمع سؤالى أم أنه لم يرد التحدث ؟

ودوى صوت من بعيد، لم أستطع أن أفرق هل هو صرير الرياح أم صوت سيارة قادمة ، ونهض الشيخ فى تأن وخرج ، ثم عاد على الفور ، وجلس أمامى فى مكانه السابق ، وقال بصوت حزين : لقد قلت لك إن السيارة ستأتى ، لا تنهض الان فسوف تصل بعد ثلاث وعشرين دقيقة ، دائما يخدع الصوت الإنسان فى الصحراء ، السيارة مازالت بعيدة ، لقد جلبت الرياح صوت محركها .. ما أفضل أن نحتسى الشاى مرة ثانية ؟ لا ترفض سوف أعده الآن فوراً ، هيا نجلس كى نتجاذب الحديث حتى تفد السيارة .

جلست فى مكانى مرة أخرى حيث مضى وقت طويل ، دون أن يغلى الإبريق وكان الشيخ يلقى داخله بوريقات الشاى مرتين أو ثلاثاً ، ثم تحرك الباب وانفرج قليلاً ، فإذا بضوء القمر ينير مساحة محدودة من الأرض أمام الباب . ثم سمعت صوت المحرك بوضوح ، وقال الشيخ : إننى أعددت الشاى ، فقلت له : كم تتعب نفسك يا والدى !!

فرد : أى تعب هذا ! إن السائق ولابد أنه سيطلب الشاى .

وصلت السيارة بعد أن احتسينا الشاى ، فأسرعنا إلى المنعطف ، وبدا البدر المكتمل وكأنه معلق على شجرة البلوط ، بينما تبسط الشجرة ظلالها عبر مسافة كبيرة ، فألقى السائق السلام على الشيخ ، وحيانى بإيماءة من رأسه ، وبدا وكأنه لا يرغب فى النزول من السيارة ، ثم سأل الشيخ : كيف وصلت يابنى العزيز ؟
فأجاب : بخير ، والان هيا اركب ياسيد ميرحيدر آتا لننصرف .

فرد الشيخ : ليس الآن يابنى العزيز ، فهناك ثلاثة آخرون سيأتون من المزارع .
فأجاب السائق : حسنا... ثم أشعل سيجارة ، والتزم الصمت برهة ، ثم قال باقتضاب معذرة يا والدى ، إننى لا أستطيع الانتظار أكثر من هذا ، لذا سأودعهم طرفكم .

فرد الشيخ : لا مانع إن كنت ستأتى يابنى الدورة القادمة ، فلم تجلس داخل السيارة ؟ هيا أنزل واحتسى الشاى .

من الأفضل أن أحتسى الشاى حينما أعود فى الدورة القادمة ، إننى على عجل الان !!

ـ إذن لك أن تتحرك ، ولكن لتصحب عابر السبيل هذا معك !!
ـ فرمقنى السائق اليافع بنظرة ، ثم قال متأففاً. هيا اركب مسرعاً !! حينذاك صافحنى ميرحيدرآتا فى حرارة ، وطلب منى ألا أنساه، وأن أزوره دوماً ، فشكرته على حسن ضيافته ، وركبت بجوار السائق .

سارت السيارة قليلاً ، ثم عرجت بنا كى نخرج من هذا المنعطف متجهة إلى المدينة ، فأخرجت رأسى من النافذة ، حيث شاهدت المصباح المنير أعلى باب المقهى بصعوبة بالغة حتى اختفى تماماً ، أما شجرة البلوط فقد بدت مع ضياء القمر من بعيد أكثر بهاء حافلة بمزيد من الأسرار .

واعترانى التفكير فى الشيخ ، حيث كنت فى ضيق لوداعى الفاتر له ، لكننى ألقيت الوزر على السائق لتعجله وعدم صبره ، وأمعنت النظر إليه ، فقد كان غاية

فى الضيق ، حيث أنهمك بتدخين سيجارة فى صمت ، وكلما كان يجذب نفساً قوياً ، كان يزداد توهج سيجارته ، فيكشف ملامح وجهه .

وفجأة أرسل السائق السباب ، ثم نظر إلىّ نظرة عدوانية وقال : معذرة إننى لا أتفوه بالسباب مطلقاً ، ولكنها خرجت سهواً من فمى . وأعتقد أنكم إمتعضتم منى لأنى حملتكم على عجل ؟

وفى نفس الوقت الذى أردت فيه أن أنكر إمتعاضى، أضاف قائلاً : ومن سواك سوف أري ، إنى ملازمك طوال الطريق ، معذرة مرة أخرى .

ثم أطلعنى على سبب ضيقه ، وهو أن ميرحيدر آتا كان قد طلب منه أن يذهب إلى البستانى ، كى يحضر باقة من الورد الأحمر،لكن ما أن تعطلت السيارة حتى أضطر إلى الانتظار طوال اليوم ، دون الذهاب إلى البستانى .

فخففت عنه وسألته : هل ستعود إلى المدينة ؟
فأجاب : قطعاً سأتوجه إليها .
فقلت : حسنا حينذاك سوف تحضر الورد .

فرد قائلا : ليس هذا كل شىء،إن ما أدمى قلبى ، هو كما ترى أن ميرحيدر آتا أول من غرس الأشجار على جانبى المنعطف ، وقام برعايتها ، لذلك فهو إنسان جليل بالنسبة لنا ، لذا فأنا خجل جداً إذ لم أستطع أن أصطحب ضيوفه .

واتكأ السائق على ظهر الكرسى،بعد أن أزاح قبعته الصفراء اللوان إلى مؤخرة رأسه ، وتنهد ثم بدأ يدخن سيجارة أخرى .

وأجتهدت أن أخفف عنه قائلاً لسنا الآن فى موسم زراعة الورد ، فنظر إلىّ متعجباً وقال : إنه يستطيع القيام بأى عمل ، لقد زرع شجرة البلوط على حافة المنعطف فى لهيب الصيف ، فأى صعوبة فى هذا الورد ؟ إن زراعة الورد بالنسبة له كشربة ماء .

فتذكرت حينذاك القبر الموجود تحت شجرة البلوط ، وصممت أن أستفسر عنه فسألته : هل لديك علم متى زرع ميرحيدرآتا شجرة البلوط،من الواضح أنه زرعها منذ زمن بعيد ؟

فسكت السائق ، وكأنه يفكر فى نفسه هل عابر السبيل هذا يريد أن يستفسر عنها من باب المصادفة أم عمداً ؟ ثم أجاب قائلاً : نعم ، لقد زرع ميرحيدر آتا شجرة البلوط من زمن ، ولكنك إن تسأله عنها ، فلن يجيبك بشىء قط ، لأنها تحمل

ذكرى أليمة له ، فهم يحكون عنهأنه كان يأتى فى أيام شبابه إلى الصحراء للعمل كأجير أو راع لدى الاقطاعيين ، لذلك فهو يعرف الصحراء جيدا ، وقد تزوج من فتاة رقيقة كانت مثله أبنة راع فقير معدم ، وأنجب منها طفلين ، أبنته تعمل الآن طبيبة فى المدينة ، وابنه أيضا يعمل مشرفا على الميكنة الزراعية الحكومية ، ولكن ماذا أملك أن أقوله لك ؟ آه فقد ذهب أحد أبناء الاقطاعيين مع صديقه ذات مرة إلى الصحراء للصيد وشرب لبن الجياد (١) ، ففتن بزوجة الراعى ، وقضيا الليل عند ذاك الراعى ، وحينما خرج فى الليل ليطل على قطيع الخيل ، دخل ابن الاقطاعى وصديقه الخيمة ، وقيدا زوجته ، فصرخت مستغيثة ، عاد الراعى مسرعاً إلى الخيمة ، فاستل أحدهما خنجراً وهاجمه ، فاندفعت زوجته أمامه ، كى تحميه بجسدها فاخترق الخنجر قلبها .

وكانت السماء قداتشحت بحرير أسود مزدان بنجوم لا حصر لها ، فهوى منها نجم ، وعلى إثره ذنب فضى فى زرقة ، بحيث ذكرهما بالخنجر الحاد ، واقشعر بدنهما لهذا السبب .

فسألت السائق : ما مصير القاتلين ؟ لعلهما هربا ؟ وأين هربا ؟!

فأجاب : قطعهما الراعى الثائر إربا إربا ، وفى اليوم التالى دفن زوجته ، وحلت أيام شديدة القيظ ، واضطر الراعى أن يرحل بقطيعه بحثا عن الماء ، فزرع شجرة البلوط ، كى لا يضل مكان القبر ، وظل أعوام ثلاثة ، يحضر قربة الماء من بعيد كى يرويها ، وها قد رأيتها وقد نمت وكبرت .

وبينما كان المحرك يصدر صوتاً منتظماً ، التزمت الصمت ، وظللت أفكر فى تضحية تلك الزوجة ، وشجرة البلوط تذكار العشق والوفاء .

تمت

(١) لطبيعة بلاد تركستان الجبلية ، فقد عرف عن اهلها أكل لحم الجياد وشرب لبنها .

تحليل القصة

الواضح من هذه القصة أن كاتبها يهدف إلى هدفين وهما :

أولا : الهدف الأول والرئيسى هو الإشادة بسياسة الحكومة السوفيتية فى ظل تطبيق النظام الاشتراكى ، بهدف إقناع القارىء بهذا النظام ، وقد بدا هذا فى مواضع كثيرة من القصة وأهمها :

١ ـ العمل على تعمير الصحارى بالإضافة إلى تعمير القرى ، وقد وضح ذلك فى المواقف التالية من القصة :

(أ) الحوار الذى دار بين الشيخ وراوى القصة عن المنطقة التى يعيش فيها ، يقول فيه : «لم يساورنى الشك مطلقاً أنهم يريدون عمل مزرعة فى هذا المكان ....، إن كل شىء قد تغيرت معالمه ، لذا لا تستطيع أن تتعرف الآن على أى مكان.».لقد أحاطوا كل منطقة بالحدائق ، وأقاموا مخبزاً ودوراً جديدة للسينما ومقهى جديد (١)

(ب) انتشار المزارع بالصحراء ، ويبدو فى طلب الشيخ للسائق كى ينتظر حتى يأتى ثلاثة أفراد من المزارع (٢)

(ج) تعمير الأماكن النائية فى الصحراء ، ويبدو فى تعليل الشيخ للراوى عن أن التعمير بدأ فى المنطقة التى يعيش فيها متأخرا هذا العام ، إذ يقول : مركزنا المحلى بعيد ، والأراضى جرداء ، فإلى أين يذهب المسئولون إذا أتوا إلى هذه المنطقة ، وبمن يسترشدون ؟ وقدتشاورت مع المسئولين فى المزرعة إلى ضرورة هذا ، ك ، وكم يكون مفيداً ، لو يعاد إصلاح المقهى ، حيث يفد الجميع للتمتع بشجرة البلوط هذه ، فاعجبوا بالتراحى ، وبدأوا التعمير هذا العام فقط (٣)

٢ ـ حق طبقة الفلاحين فى المشاورة وإبداء الرأى ، وتلبية أرائهم إذا كانت صائبة ، ويبدو فى :

---

(١) أنظر القصة : ص ١٠٧

(٢) أنظر القصة : ص ١٠٨

(٣) أنظر القصة : ص ١٠٧

(أ) إشارة الشيخ صاحب المقهى إلى أن المشرف على المزارع جاءه ، ليتشاور معه بشأن إستراحة المزرعة (١)

(ب) إشارة الشيخ إلى أن الفضل فى تعمير المنطقة التى يعيش فيها يرجع إلى إقتراحه الذى قدمه إلى المسئولين فى المزرعة ، وموافقتهم على هذا الاقتراح وتنفيذه .

٣ ـ تصوير الصحارى فى صورة جميلة ، فقد بدت أرضاً خضراء ، صالحة للمعيشة ، بها وسائل الخدمات ودور للتسلية ، بحيث أصبحت زيارتها تطيب لأهل المدينة ، إذا ضاقوا ذرعاً بالمدينة لضيقها وإزدحامها ، ويبدو ذلك فى تبرير زيارة الراوى للصحراء حيث قال : « المدينة ضيقة ومزدحمة ، لذا سلكت الطريق إلى الوديان والصحارى ، كى أستنشق هواء نقيا » (٢)

٤ ـ الإشارة بأن الميكنة الزراعية قد سادت الريف التركستانى ، ويبدو ذلك فيما ذكره السائق عن مهنة ابن صاحب المقهى ، إذ يقول : « وابنه أيضا يعمل مشرفاً على الميكنة الزراعية الحكومية » (٣)

أما الهدف الثانى للقصة فلن أفيض فى الحديث عنه ، وذلك لأنه من الأهداف التى سعت القصص السابقة ترجمتها إلى تحقيقه ، ألا وهو إثارة الطبقة العاملة ضد طبقة الأقطاعيين ، بهدف كسبها لصالح الحكومة الشيوعية ، ويتضح هذا الهدف فى نهاية القصة ، فيما ذكر عن مقتل زوجة صاحب المقهى على يد أحد أبناء الأقطاعيين .

---

(١) أنظر القصة : ص ١٠٧

(٢) أنظر القصة : ص ١٠٦

(٣) أنظر القصة : ص ١١٠

الخاتمة

بعد أن تناولنا شعوب تركستان الاسلامية من خلال تاريخهم وادابهم ، نستطيع أن نقر حقيقة واقعة وهى أنه على الرغم من مرور أكثر من ستين عاماً على الغزو السوفيتى لهذه الشعوب العريقة ، إلا أن نضال هذه الشعوب الباسل مازال يثير مخاوف روسيا الشيوعية حتى الآن ، ومازالت تسعى جاهدة من أجل إقناعهم بمزايا تطبيق النظام الاشتراكى فى بلادهم ، فدفعت كتاب هذه الشعوب الذين إنجرفوا فى تيارها إلى الكتابة عن بلادهم بما يتمشى مع سياستها وأهدافها .

ونستطيع أن نتبين من خلال القصص التى قمت بترجمتها ضمن المجموعة القصصية التى تمثل أدب هذه البلاد ، أن هؤلاء الكتاب هدفوا إلى تزييف نضال شعوبهم الباسل ، والتشكيك فى قداسته عن طريق نسب الأعمال الاجرامية والتخريبية إليهم ، والتركيز على إبراز الخسائر الناجمة عن هذا النضال من تشريد وضياع وجوع وفقر ، حتى أنه كان سبباً فى نفور الشعوب التركستانية واستيائهم من حركة النضال الوطنى ، وتأييد السلطات الروسية ومساندتهم لها من أجل تخليص بلادهم من شرها .

كما استعان هؤلاء الكتاب بأجداد هذه الشعوب كرمز للجيل الماضى وبأبنائهم كرمز للجيل الحاضر فى الدفاع على لسانهم عن كل ما تتهم به روسيا الشيوعية فى حق هذه الشعوب ، وفى الإشادة بانجازاتها التى حققتها تجاه هذه البلاد فى ظل تطبيق النظام الاشتراكى .

غير أننا نستطيع فى ختام حديثنا أن نقر أن نضال المقاومة الوطنية ضد الغزو السوفيتى كان نضالاً باسلاً ذا هدف سام ، منبعه أصالة هذه الشعوب وإيمانهم العميق بخالقهم وتمسكهم بدينه القويم ، يؤكده دور قوادهم البارز الذى سجله التاريخ الإسلامى فى سبيل نشر الإسلام فى بقاع العالم المختلفة .

المراجـــع

أولا : المراجع العربية :

احمد امين

١ ـ ظهر الاسلام ج ٢ ، الطبعة الخامسة ١٩٧٨ م

أحمد الخولى : دكتور

٢ ـ الدولة الصفوية ، طبع القاهرة ١٩٨١ م

احمد السعيد سليمان : دكتور

٣ ـ تاريخ الدول الاسلامية ، ج ٢ ، طبع مصر .

ارمينيوس فامبرى

٤ ـ تاريخ بخارى : ترجمة الاستاذ الدكتور احمد الساداتى ، طبع القاهرة .

حسن محمود : دكتور .

٥ ـ الحضارة العربية فى أسيا الوسطى ، طبع القاهرة

حسن محمود واحمد ابراهيم : دكتور

٦ ـ العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، الطبعة الرابعة ، طبع القاهرة ١٩٨٠ م

الراوندى : محمد بن على بن سليمان الراوندى .

٧ ـ راحة الصدور وأية السرور : ترجمة الاساتذة الدكتور ابراهيم الشواربى والدكتور عبد النعيم حسنين والدكتور فؤاد الصياد ، طبع القاهرة ١٩٦٠ م .

سعد مصلوح : دكتور .

٨ ـ المسلمون بين المطرقة والسندان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ م .

السيد عبد المؤمن السيد أكرم .

٩ ـ أضواء على تاريخ توران (تركستان) ، طبع مكة المكرمة .

الطبرى :

١٠ ـ تاريخ الطبرى ، ج ٦ ، ١٠ ، ١١ ، طبع مصر .

عادل طه : دكتور .

١١ ـ المسلمون فى العالم ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٠ م .

عبد النعيم حسنين : دكتور

١٢ ـ إيران والعراق فى العصر السلجوقى ، القاهرة ١٩٨٢ م

فاسيلى فلاديمير وفتش بارتولد .

١٣ ـ تركستان : ترجمة الدكتور صلاح الدين عثمان ، طبع الكويت ١٩٨١ م
فيليب حتى وآخرون .
١٤ ـ تاريخ العرب ، ج ٢ ، طبع بيروت ١٩٥٠ م .
محمد الغزالى .
١٥ ـ الإسلام فى وجه الزحف الأحمر الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٨٤ م
مكسويه : أبو على احمد بن محمد .
١٦ ـ تجارب الأمم ، ج ٦ ، القاهرة ١٩١٥ م .
نبيه عاقل : دكتور .
١٧ ـ خلافة بنى أميه : طبع دمشق ١٩٧٢ م .
و . بارتولد :
١٨ ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ، ترجمة د . احمد السعيد سليمان ، طبع القاهرة .

ثانيا : المراجع الفارسية

حسن پيرنيا وعباس اقبال :
١٩ ـ ١ ـ تاريخ ايران (ازآغازتا انقراض قاجارية) چاپ تهران .
دهخدا :
٢٠ ـ لغت نامه ، چاپ تهران ١٣٤٤ هـ . ش
راوندى : محمد بن على بن سليمان راوندى
٢١ ـ راحة الصدور وآية السرور ، تصحيح محمد اقبال ، ليدن ١٩٢١ م .
٢٢ ـ مرع سعادت : داستانهاى نويسند گان (ازبك) ترجمة ازمهدى رستمى ، بنگاة نشريات پروگرس ، تاشكند ١٩٨٢ م .

ثالثاً ـ المراجـع الأجنبيـة :

٢٣ ـ Lexicon Universal Encyclopedia, V : 19, New York, 1983

٢٤ ـ Uzbekistan Socialist Republic of Soviet, Transelated From Russiam

by Valent Conctkov, P : 10, Mos Cow, 1982

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحـــة

رقم الايداع بدار الكتب : ٣٧٨٩ / ٨٥

طبعت بالمطابع رقم (٢) لمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

١٢٦٠

هذا الكتاب

- هذا الكتاب يتناول ـ من خلال تخصص مؤلفته فى الدراسات الشرقية الإسلامية ـ تاريخ تركستان تلك البلاد الإسلامية العريقة التى تشكل الآن جمهوريات الإتحاد السوفيتى الإسلامية بآسيا الوسطى ، ودور هذه البلاد فى نشر الإسلام بين بقاع العالم المختلفة ، ومساهمتها الفعالة فى بناء صرح الحضارة الإسلامية .
- كما يتناول الغزو الروسى لهذه البلاد ، ويكشف عن موقف الشيوعية من الإسلام والمسلمين هناك .
- أما الجزء الثانى من هذا الكتاب ، فهو يقدم للقارىء العربى مجموعة قصصية مترجمة لأدباء هذه البلاد ممن عاصروا الثورة البلشفية ، وممن ما زالوا على قيد الحياة ، والذين إنجرفوا فى تيار السياسة السوفيتية فجاءت كتاباتهم مزيفة للحقيقة والواقع .
- يكشف هذا الكتاب من بين سطور هذه القصص المترجمة القضايا التى يعايشها مسلمو تركستان فى ظل الحكم السوفيتى ، ويؤكد قداسة النضال الوطنى ضد الغزو السوفيتى لبلادهم .

طبعت بالمطابع رقم (٢) لمؤسسة دار التعاون للطبع والنشر

